أحوال العراق الاقتصادية
في عهد الايلخانيين المغول
٦٥٦ ـ ٧٣٧هـ (١٢٥٨ ـ ١٣٣٦م)

الدكتور جعفر حسين خصباك

ـ ١ ـ
(نظام الرى)

كانت البلاد التى تكوّن عراق اليوم تتكون فى عهد الايخانيين المغول من ولاية العراق العربى وأجزاء من ولايتى الجزيرة والعراق العجمى وكانت أهمها جميعا ولاية العراق العربى وقد حدده صاحب مراصد الاطلاع وهو معاصر بأنه كان يمتد (ما بين حديثة الموصل الى عباداًن طولا وما بين عذيب القادسية الى حلوان عرضا)[١] وأشار اليه القزوينى المتوفى سنة ٦٨٢هـ (١٢٨٣م) بأنه كان يمتد (من الموصل الى عبادان طولا ومن القادسية الى حلوان عرضا)[٢] وفعل مثل ذلك عبدالله بن فضل الله صاحب تاريخ وصاف الذى وضع كتابه فى أوائل القرن الثامن الهجرى[٣] والاشارتان الاخيرتان تمدان رقعة العراق العربى الى الشمال فتضيفان اليه جزءاً من بلاد الجيزرة ، ويبدو أن سبب ذلك وقوع المنطقة الاخيرة تحت حكم الايلخانيين حالها فى ذلك حال العراق ، بينما كانت المنطقتان منفصلتين عن بعضهما سياسيا واداريا خلال الفترة الاخيرة من العهد العباسى • وقد كان يشق هذه البلاد كما هو عليه الآن نهران عظيمان هما دجلة والفرات لولاهما لكانت قطعة من الصحراء • وكان أهم ما يميزهما عن الوقت الحاضر أن دجلة كانت تسير جنوب بغداد الى الغرب من مجراها الحالى فتمر بواسط

---

(١) مراصد الاطلاع ، ج ٢ ، ص ٩٢٦ •
(٢) زكريا بن محمد بن محمود القزوينى ، آثار البلاد وأخبار العباد ، ص ٢٨٠ •
(٣) تاريخ وصاف (طبعة الهند) ، ج ٤ ، ص ٤٤٠ •

وأن الفرات كان ينقسم تحت نقطة تفرع نهر كوثى منه بستة فراسخ الى فرعين يسير الغربى منهما الى الكوفة ومنها الى البطائح بينما يسير الآخر نحو الجنوب الشرقى الى مدينة بابل القديمة حيث يكوّن عمود النهر فى هذه الفترة ويتفرع عندما يتجاوزها الى عدة أنهار يمر أكبرها بمدينة النيل ويسمى بعدها بنهر الصراة ثم يصب فى دجلة[٤] عند مدينة سابس فوق واسط . وكانت تتفرع من الفرات عدة أنهر تصب فى دجلة أهمها نهر عيسى وكان يخرج من الفرات تحت مدينة الانبار ويصب فى جوف الجانب الغربى من بغداد ونهر صرصر ومخرجه من تحت نهر عيسى ومصبه فوق المدائن بأربعة فراسخ ونهر الملك ومخرجه تحت نهر صرصر ومصبه أسفل من المدائن بثلاثة فراسخ ونهر كوثى ومخرجه من تحت نهر الملك بثلاثة فراسخ ومصبه أسفل نهر عيسى بعشرة فراسخ وكان خربا فى هذا العهد على ما يقوله صاحب مراصد الاطلاع[٥] يؤيد ذلك عدم اشارة المستوفى القزوينى اليه . أما أهم الانهار التى كانت تتفرع من دجلة فهى نهر القورج فى شمالى بغداد على الجهة الشرقية منها وكان منه أكثر غرق بغداد[٦] . ومن الجهة الغربية كان يتفرع نهر دجيل من دجلة أسفل موقع مدينة القادسية جنوبى سامراء حيث تقوم عليه مدن وقرى عديدة ويصب فى دجلة[٧] بأزاء عكبراء . وكان نهر الاسحاقى الى الشمال من دجيل يخرج من دجلة جنوبى مدينة تكريت ويصب فى نفس النهر الى الشمال من مخرج نهر دجيل ويبدو أنه كان جافا فى هذه الفترة لاننا لم نعثر له الا على اشارتين ضعيفتين فى مراصد الاطلاع[٨] وصبح الاعشى[٩] . أما أهم الانهار التى كانت تنحدر من الجبال الشمالية الشرقية نحو دجلة

---

(٤) أبو الفداء ، تقويم البلدان ، ص ٥٤ ـ ٥٥ .
(٥) مراصد الاطلاع ، ج ٣ ، ص ١٠٢١ .
(٦) ن . م . ، ج ٣ ، ص ١١٣٢ .
(٧) ن . م . ، ج ٢ ، ص ٥١٦ .
(٨) حمدالله المستوفى القزوينى (الترجمة الانكليزية للقسم الجغرافى منه بقلم G. Lestrange) ص ٢٠٧ .
(٩) صبح الاعشى ، ج ٤ ، ص ٣٢٤ .

فهى الزاب الكبير والزاب الصغير وديالى أو (تامرا)[١٠] .

وكان نهرا دجلة والفرات يدخلان البطائح بعد واسط والكوفة وهى مجموعة من الاهوار كانت تمتد بين واسط والبصرة كان فيها الكثير من المواقع العالية التى ينكشف عنها الماء وتقوم عليها قرى ومزارع يكثر حواليها القصب ويزرع فيها الرز وغيره[١١] وكان النهران المذكوران يخرجان من البطائح ليلتقيان بالقرب من قرية (مطارة)[١٢] ويكونان دجلة العوراء أو شط العرب الحالى الذى كان يسير جنوبا نحو الخليج الفارسى[١٣] . وبينما يشير أبو الفداء الى كثرة الانهار التى كانت تتفرع من دجلة من الجانبين الشرقى والغربى حتى تبلغ فى عددها المائة الف[١٤] يقول المستوفى القزوينى أن خمسة أنهر كبيرة هى (دقلة) و (غراف) و (جعفر) و (ميسان) و (ساسى) كانت تستنزف مياهه حتى لا يبقى فى مجراه بعد ذلك الا القليل الذى لم يكن يكفى لسير السفن[١٥] . يضاف الى ذلك أن أنهارا عديدة كانت تتفرع من دجلة العوراء[١٦] . وتسقى المنطقة المحيطة بالبصرة ولكن الكثير منها كان خرابا[١٧] منذ أواخر العهد العباسى .

كان رخاء العراق يعتمد بالدرجة الاولى على الزراعة التى كان ازدهارها يقوم على نظام الرى لقلة الامطار التى تسقط فى هذه المنطقة ولم يكن لسلاطين

---

(١٠) مراصد الاطلاع ، ج ١ ، ص ٢٥٠ ، ج ٢ ، ص ٥٤٨ .
(١١) أبو الفداء ، تقويم البلدان ، ص ٤٣ .
(١٢) يرى صديقنا الفاضل الدكتور محمد رشيد الفيل ان القرية المذكورة تمثل مدينة القرنة الحالية وهو أول كاتب أشار الى هذه الحقيقة المهمة (انظر أطروحته وهى لم تنشر بعد وعنوانها جغرافية العراق التاريخية بين الاحتلالين المغولى والعثمانى (بالانكليزية) ص ٢٠٦ ـ ٢٠٧) .
(١٣) نزهة القلوب ، المصدر الذى مر ذكره ، ص ٢٠٧ .
(١٤) أبو الفداء ، تقويم البلدان ، ص ٥٦ ـ ٥٧ .
(١٥) نزهة القلوب ، ص ٢٠٧ .
(١٦) انظر مراصد الاطلاع ، ج ١ ، ص ١٩٢ ، ١٩٨ ، ٣٣٥ ، ج ٢ ، ص ٧٨١ ، ج ٣ ، ص ١٢٥٩ ، ١٣٩٩ .
(١٧) أبو الفداء ، تقويم البلدان ، ص ٥٦ ـ ٥٧ .

الايلخانيين وحكمهم فى العراق سياسة واضحة فى هذا الشأن فلم يردنا ما يشير الى أن حكومات هذا العهد كانت تهتم بازالة ترسبات الانهار والقنوات ولا فتح قنوات جديدة الا النهر الذى أمر غازان بفتحه من الفرات من أعلى مدينة الحلة والذى سمى باسمه النهر الغازانى وربما كان نفس النهر العباسى المسمى بالعلقمى ولكن غازان أعاد فتحه وتنظيفه(١٨) وبينما يشير صاحب الكتاب الموسوم بالحوادث الجامعة اشارة مقتضبة اليه(١٩) يقدم لنا رشيدالدين فضل الله تفصيلا جيدا عنه بقوله ان غازان أمر بفتح نهر فى منطقة الحلة سمى بالنهر الغازانى أوصله الى مشهد الحسين حتى أخذ يسقى أراضى كربلاء اليابسة فأصبحت الاراضى الممتدة على جانبيه مليئة بالحدائق والبساتين واصبحت السفن القادمة من بغداد وغيرها من دجلة والفرات تستطيع الوصول الى المدينة وارتفع انتاج غلات المنطقة الى ما يقارب المائة الف طغار وأصبحت صادراتها من الحبوب والخضروات الفاخرة تصل الى بغداد واعمالها • ويضيف رشيد الدين الى ذلك ان غازان اوصل الماء فى فرع من النهر المذكور الى مشهد سيدى أبى الوفاء فى نهر سمى بالنهر الغازانى الاسفل وأوقف الكثير من الاراضى الجديدة على خدمة المشهد المذكور • وقد عمرت الاراضى الواقعة على نهر الغازانى وارتفعت أسعارها وأسعار البيوت التى انشأت عليها اضعافا مضاعفة(٢٠) • يضاف الى ذلك ان صاحب تاريخ وصاف يشير الى ان عطا ملك جوينى ، صاحب ديوان العراق فتح نهرا من الفرات الى النجف أنفق عليه اكثر من مائة الف دينار وقد زرعت الاراضى الواقعة عليه بالاشجار والمزارع(٢١) • ولكن وصاف ينفرد بهذا الخبر الذى لم يرد فى أى مصدر معاصر آخر • وعلى الرغم مما كنا نسمعه من حوادث الغرق المتكررة لبغداد وكثير من مدن العراق خلال السنين الاخيرة من العهد العباسى فأن أخبار العهد الايلخانى لا تشير الا الى القليل منها فقد

---

(١٨) تاريخ وصاف ، ج ٤ ، ص ٤٠١ •
(١٩) الحوادث الجامعة ، ص ٤٩٧ •
(٢٠) داستان غازان ، ص ٢٠١ ـ ٣٠٣ •
(٢١) تاريخ وصاف ، ج ١ ، ص ٥٩ •

غرقت بغداد وانفتح القورج فى ٦٧٦هـ (١٢٧٧م)[٢٢] وزادت دجلة زيادة عظيمة غرقت بسببها عدة مواضع على الجانب الغربى حتى تلفت الكثير من الزروع سنة ٦٨٣هـ (١٢٨٤م)[٢٣] وزادت الفرات زيادة عظيمة غرقت فيها أعمال الحلة والكوفة ونهر الملك ونهر عيسى سنة ٦٨٥هـ (١٢٨٦م)[٢٤] وغرقت بغداد غرقا عظيما حتى أحاط بها الماء من كل جهة سنة ٧٢٥هـ (١٣٢٤م)[٢٥] • وهذه حوادث قليلة متباعدة اذا قورنت بما كان يحدث فى أواخر العهد العباسى ويبدو ان الفرق بين الحالتين يعود للصدفة فقط • ولابد لنا ان نلاحظ فى هذا المجال أنه بينما كان العراق العربى يكاد يكون دولة بنى العباس نفسها فى عهودهم الاخيرة ورخاؤه الاقتصادى أساس غناهم وقوتهم ، لم يعد فى العهد الايلخانى الا ولاية ممتازة فقط من ولايات عديدة تؤلف امبراطورية شاسعة وبينما كانت بغداد عاصمة العباسيين وقاعدة حكمهم أصبحت تبريز ثم السلطانية هما قاعدتا الايلخانين الرئيستان ولذلك فأن عناية هؤلاء تركزت فى ايران دون العراق الذى وقع لولاته أمر العناية الرئيسة بشؤونه التى كان من بينها أمور الرى يضاف الى ذلك ان الحكام الايلخانيين كانوا غير بعيدين عن البداوة وكان ادراكهم لامور الرى وما يرتبط بها من سياسة اقتصادية عامة محدودا • وقد زاد فى سوء الاحوال ما نشب بينهم من فتن وما حدث من تنافس وتآمر بين نوابهم من حكام العراق •

أما ما يقال عن تخريب الايلخانيين المغول المنظم لنظام الرى فى العراق فأنه أمر لا صحة له البتة لان المصادر المعاصرة لا تشير فى هذا الباب الا الى تخريبهم العمدى لنهر صغير من فروع دجيل خلال حربهم مع جيش الخليفة المستعصم بالله شمالى بغداد الغربية سنة ٦٥٦هـ (١٢٥٨م)[٢٦] • وقد كان نظام الرى العباسى الاخير قائما أيام الفتوحات الايلخانية •

---

(٢٢) الحوادث الجامعة ، ص ٣٩٤ •
(٢٣) ن • م • ص ٤٤٢ •
(٢٤) ن • م • ص ٤٤٩ •
(٢٥) شمس الدين الذهبى ، تاريخ دول الاسلام ، ج ٢ ، ص ١٧٧ •

- ٢ -

الزراعـــــة

ليست لدينا حقائق واضحة يمكن الاطمئنان اليها عن مساحة الأراضى المزروعة فى العراق أيام الايلخانيين ولـكن معرفتنا بنظام الرى القـائم آنذاك وطبيعة البلاد وافادات الجغرافيين والسواح وكتاب التاريخ المعاصرين تدل على أنها كانت لا تزال كبيرة واسعة وقد كانت الزراعة تقوم بصورة رئيسة على نهرى دجلة والفرات والانهار التى تصبّ فيهما وتتفرع منهما بينما كانت منطقتا الجزيرة والجبال أو العراق العجمى تعيشان على الامطار التى تتفاوت مقاديرها بين سنة وأخرى فتتفاوت المساحات الزراعية تبعا لها • يحدثنا المستوفى القزوينى ان العراق فى عهده كان يحتوى على الـكثير من الاراضى غير الصالحة للزراعة بسبب كونها صحراء أو مغطاة بالاهوار وأن القوة الانتاجية للوحدة الزراعية كانت منخفضة فى عهده الى حد أنها كانت تبلغ نصف ما كانت عليه أيام الخليفة عمر بن الخطاب وأن من أسباب ذلك التدخل السيء غير الصالح من قبل الحـكام فى شؤون الزراعة وبينما كانت مساحة الاراضى المزروعة والتى كان يتوفر لها الماء اللازم للزراعة تبلغ الستة وثلاثين مليون جريبا فى عهد الخليفة عمر بن الخطاب فأنها أصبحت أصغر من ذلك فى أواخر العهد العباسى نظرا لموت مشروع النهروان وكان من أعظم مشاريع الرى فى العالم القديم وعالم القرون الوسطى وذلك أيام الملوك السلجوقية ولموت انهار وقنوات كثيرة فى البصرة وغيرها وتغيير دجلة لمجراه الى اليمين شمالى بغداد ثم لجفاف نهر كوثى أيام الايلخانيين وأن النهر الغازانى لم يكن من السـعة بحيث يعوض تلك الخسارة • ويمكننا القول باطمئنان ان المناطق الرئيسة التى كانت تقوم عليها ثروة البـــلاد الزراعية هى كما يلى :

أولا : منطقة ما بين النهرين دجلة والفرات الواقعة بين الحلة وبغداد ويبدو

---

(٢٦) الحوادث الجامعة ، ص ٣٢٤ ؛ تاريخ وصاف ، ج ١ ، ص ٣٤ .

أنها كانت أغنى بقاع العراق العربى وأكثرها انتاجا لكثرة الانهار التى كانت تجرى فيها من الفرات الى دجلة فابن جبير وقد مر بها فى ٥٨٠هـ (١١٨٤م) يصف الطريق بين الحلة وبغداد بأنه أحسن طريق وأجملها تتصل به القرى يمينا وشمالا وأن الانسان لا يكاد يسير ميلا حتى يجد قنطرة على نهر يتفرع من الفرات وأن الحبوب والبساتين وحدائق النخيل تكثر فى المنطقة وأنه عند اقترابه من بغداد أصبحت دجلة تسقى شرقى المنطقة والفرات يسقى غربيها والقرى والمزارع متصلة بين النهرين[١] . ويلقى حمد الله المستوفى القزوينى ضوءاً مفيدا على أحوال المنطقة فى أواخر العهد الايلخانى فى اشاراته المتكررة الى مدنها وأنهارها فهو يصف الحلة بكثرة بساتين النخيل الى حد ان مناخها أصبح رطبا بسبب ذلك ويصف غلاتها بالرخص والتشابه مع غلات بغداد[٢] ويصف منطقة نهر النيل بالقرب من الحلة بكثرة بساتين النخيل وانتاج الحنطة[٣] . ومع أنه لا يذكر نهر كوثى مما يدل على انه كان خربا فى عهده فأنه يشير الى نهر الملك بأنه كان يقوم عليه أكثر من ثلثمائة قرية تقدم لخزينة الدولة ضرائب تبلغ الخمسين آلف دينار[٤] ويصف منطقة نهر عيسى بأنها كانت تقدم مع توابعها واردات للخزينة تبلغ (٨٧٦٫٥٠٥)[٥] دينارا وعند كلامه عن منطقة بغداد يؤكد على رخص غلاتها الزراعية فى أكثر فصول السنة وتوفر الفواكه فيها ورخصها مثل التمر المكتوم والخستاوى والرمّان المسمى بالدراجى والعنب المراقى الذى لم يكن يوجد مثله فى أية بلاد أخرى وزراعة القطن والحنطة والحبوب الاخرى فيها وغنى مراعيها حتى ان البقر فيها يبدو شديد السمنة وحيوانات الصيد كثيرة العدد[٦] .

---

(١) رحلة ابن جبير (تحقيق الدكتور حسين نصار) ، ص ٢٠٠ - ٢٠٣ .
(٢) نزهة القلوب ، ص ٤٧ .
(٣) ن . م . ص ٥٣ .
(٤) ن . م . ص ٥٢ .
(٥) ن . م . ص ٥٢ .
(٦) ن . م . ص ٤١ .

ثانيا : منطقة البصـــرة : وقد وصفها أبو الفـــداء بكثرة البساتين والمزروعات[٧] وأشار ابن بطوطة الى المنطقة الواقعة بين ساحل البصرة والابلة بأنها بساتين متصلة ونخيل مظلة عن اليمين واليسار والى مدينة البصـرة بأنها ذات بساتين كثيرة وفواكه أثيرة ليس فى الدنيا أكثر نخلا منها[٨] . وزاد المستوفى القزوينى على ذلك بقوله أن منطقة البصرة كثيرة البساتين الى حد يصعب معها على الانسان النظر خلالها لمسافة طويلة[٩] .

ثالثا : منطقة الفرت بين الانبار وعانة وقد وصفها رشيد الدين فضل الله فى كلامه عن وصوله اليها مع السلطان محمود غازان فى ٧٠٢هـ (١٣٠٢م) بأنها الى سروج وحرّان فى حدائق وبساتين الظل الـكثيف لا ينقطع عنها ودواليب النواعير تتحرك فيها ليل نهار[١٠] . وقد وصف ابن بطوطة المنطقة الواقعة بين الانبار وعانة عند مروره بها فى ٧٤٨هـ (١٣٤٧م) بأنها من أحسن البلاد وأشدها خصوبة والطريق فيها كثير العمارة كأن الماشى فيه يسير فى سوق من الاسواق وقال بأنه لم ير ما يشبه البلاد الواقعة على نهر الصين من حيث الجودة الا هذه البلاد[١١] .

رابعا : منطقة دجيل الى الشمال من بغداد بينها وبين تكريت وكانت تقول عليها قرى كثيرة تقرب من المائة غلاتها الزراعية كبيرة أشهرها الرمان المعروف بالدراجى[١٢] .

خامسا : المنطقة الواقعة على نهر دجلة بين تكريت والموصل وقد أشار اليها المستوفى القزوينى بشهرة ليمونها وتوفر الفاكهة فيها فى تكريت[١٣] . واتفق ابن جبير وابن بطوطة على الرغم من تباعد الزمن بينهما على اتصال

---

(٧) أبو الفداء ، تقويم البلدان ، ص ٥٧ .
(٨) تحفة النظار ، ج ١ ، ص ١١٥ ، ١١٧ .
(٩) نزهة القلوب ، ص ٤٥ ـ ٤٦ .
(١٠) داستان غازان ، ص ١٤٤ .
(١١) تحفة النظار ، ج ٢ ، ص ١٧٥ .
(١٢) نزهة القلوب ، ص ٤٨ ؛ مراصد الاطلاع ، ج ٢ ، ص ٥١٦ .
(١٣) نزهة القلوب ، ص ٤٦ ـ ٤٧ .

القرى والعمائر فيها[١٤] . وأعجب الرحالة ابن سعيد بساتين الموصل[١٥] وأكد القزوينى على توفر البساتين حول المدينة وانتفاع أهلها بدجلة انتفاعا جيدا مثل شقهم قناة منها نصبوا عليها النواعير وأقامتهم الطواحين فى دجلة يديرها ماء النهر نفسه[١٦] . ويظهر من الحقائق التى قدمها صاحب مراصد الاطلاع ان القرى كانت كثيرة حوالى المدينة المذكورة والزراعة واسعة غنية[١٧] .

سادسا : طريق خراسان : وتقابل لواء ديالى فى وقتنا الحاضر ، وكانت من أغنى مناطق العراق وأكثرها سكانا وأشدها ازدحاما بالقرى الزراعية وقد كانت بساتين النخيل والفاكهة تكثر فيها خصوصا البرتقال وكان من أهم مدنها بعقوبة وشهرابان وباجسرا ومهرود وطبق والبندنيجين[١٨] .

هذه أهم مناطق العراق الزراعية أيام الايلخانيين وهناك مناطق صغيرة غيرها عرفت بجودة زراعتها ووفرة غلاتها مثل واسط وكانت معروفة بكثرة البساتين خصوصا النخيل[١٩] . والكوفة وكانت مدينتها خربة فى هذه الفترة ولكن المنطقة المجاورة لها معروفة بجودة محاصيلها من القطن والحنطة والحبوب الاخرى[٢٠] . وأربل وكانت معروفة بالحنطة والقطن[٢١] . وسنجار وكانت تقع فى منطقة غنية كثيرة البساتين غزيرة الفاكهة خصوصا الزيتون والتين والعنب الفاخر[٢٢] .

---

(١٤) رحلة ابن جبير ، ص ٢١٦ ـ ٢١٩ ؛ تحفة النظار ، ج ١ ، ص ١٤٨ .
(١٥) كتاب بسط الارض ، ص ٩٠ .
(١٦) آثار البلاد وأخبار العباد ، ص ٣٠٩ .
(١٧) ج ١ ، ص ٥٤ ، ٣١٠ ، ٣١٦ ، ٤٠٣ الخ .
(١٨) نزهة القلوب ، ص ٤٩ ؛ مراصد الاطلاع ، ج ٣ ، ص ١٣٦١ ، ج ١ ، ص ٢٢٥ .
(١٩) نزهة القلوب ، ص ٥٣ .
(٢٠) ن . م . ص ٣٧ .
(٢١) ن . م . ص ١٠٢ .
(٢٢) ن . م . ص ١٠٣ .

- ٣ -

ملكيات الاراضى والاقطاع

يمكن القول على ضوء النصوص المتوفرة لدينا أن الاصناف الآتية من الاراضى كانت موجودة فى العراق خلال الفترة الواقعة بين أول خلافة الناصر لدين الله وسقوط بغداد بأيدى المغول الايلخانيين ٥٧٥ - ٦٥٦هـ (١١٧٩ - ١٢٥٨م) • (أ) أراضى الخليفة[١] (ب) أراضى الديوان أى ملكية حكومية[٢] (ح) أراضى وقفية[٣] (د) ملكيات فردية[٤] •

ومع أنه يصعب علينا تحديد نسبة كل صنف من هذه الاصناف فأن كثرة اقطاعات الناصر لدين الله من أراضى الديوان[٥] يدل على سعة هذا الصنف من الاراضى فى عهده كما أن الاخبار الكثيرة عن الملكيات الفردية تؤكد سعتها[٦] أيضا •

ويبدو ان الخليفة الناصر لدين‌الله كان أكثر خلفاء بنى العباس المتأخرين أقطاعا للاراضى والمدن فقد كان الامير فلك الدين الطويل الناصرى مقطع دقوقا وتكريت وبين النهرين[٧] والامير (آى ابه) بن عبدالله التركى المعروف بالشاهين مقطع واسط[٨] مدة من الزمن والامير

---

(١) سبط ابن الجوزى ، مرآة الزمان ، ج ٨ ، قسم ٢ ، ص ٥٦٥ ؛ ابن كثير ، البداية والنهاية ، ج ١٣ ، ص ٦٥ •

(٢) ابن الساعى ، الجامع المختصر ، ص ١٢٩ ، ١٥٠ ؛ مرآة الزمان ، ج ٨ قسم ٢ ، ص ٥٢٧ •

(٣) مرآة الزمان ، ج ٨ قسم ٢ ، ص ٦٨٧ ؛ الحوادث الجامعة ، ص ٦٣ - ٦٤ •

(٤) ابن الاثير ، الكامل ، ج ١٢ ، ص ١٨١ - ١٨٢ ؛ عمدة الطالب فى أنساب آل ابى طالب ، ص ١٥٣ - ١٥٥ •

(٥) ابن الساعى ، ج ٩ ، ص ٢٧ ، ١٥٠ ، ١٨٠ ، ٢١٥ ، ابن كثير ، البداية والنهاية ، ج ١٣ ، ص ٦٦ •

(٦) ابن الاثير ، الكامل ، ج ١٣ ، ص ١٨١ ؛ ابن كثير ، ج ١٣ ، ص ٦٦ ، الحوادث الجامعة ، ص ٢٦٤ •

(٧) ابن الساعى ، الجامع المختصر ، ص ٢٧ •

(٨) ن • م • ص ١٢٩ •

طغرل الناصرى مقطع اللحف والبندنيجين[٩] ومثل ذلك غيرهم • ولكننا لا نسمع فى أخبار المستنصر بالله الا القليل من أمثال ذلك مثل أقطاعه ككسنقر معاملة الحدادية من أعمال واسط فى ٦٢٧هـ (١٢٢٩م) وقوسان[١٠] فى زمن آخر واقطاعه الامير حسام‌الدين أبى فراس بن جعفر بلد دقوقا[١١] فى ٦٣٠هـ (١٢٣٢م) والظاهر أن (قوسان) و (دقوقا) انتزعتا من مقطعيها لانهما اقطعتا بعد ذلك فى زمن غير محدد للامير الطبرسى الظاهرى المعروف بالدويدار الكبير[١٢] وعند دراسة اقطاع هذا العهد نستطيع تمييز الخصائص الآتية فيه :

أولا : كان الاقطاع أسلوبا شائعا من أساليب الادارة العباسية يتم أحيانا بشكل ضمان يقبله المقطع ويحتفظ لنفسه بما يبقى من ايرادات اقطاعه فابن الساعى يذكر أن ضمان البصرة عقد فى ٥٩٧هـ (١٢٠٠م) على الامير عمادالدين طغرل بمبلغ مائة الف وخمسة عشر الف دينار[١٣] ثم يعود ليذكر فى حوادث ٦٠٣هـ (١٢٠٦م) وفاة الامير عمادالدين طغرل بن عبدالله التركى مقطع البصرة[١٤] ومما يؤكد ما ذهبنا اليه ان صاحب عمدة الطالب يذكر أن النقيب جلال‌الدين القاسم بن الزكى الثالث كان صدر البلاد الفراتية بأسرها ونقيبها أيام الناصر لدين‌الله وأنه حكم (قوسان) وكان قد ضمنها بغير اختياره لان ضمانها كان ثقيلا[١٥] •

ثانيا : يكوّن الاقطاع شكلا خاصا من أشكال التولية الادارية يختلف عن الضمان ويكون المقطع فى هذه الحالة مسئولا عن ارسال واردات

---

(٩) ن • م • ص ١٣٠ •
(١٠) الحوادث الجامعة ، ص ١٧ •
(١١) ن • م • ص ٤٣ •
(١٢) ن • م • ص ٢٦٤ •
(١٣) الجامع المختصر ، ج ٩ ، ص ٤٦ •
(١٤) ن • م • ص ١٢٥ •
(١٥) جمال‌الدين أحمد بن على بن الحسين ، عمدة الطالب فى أنساب آل أبى طالب ، ص ١٥٥ •

الاقطاعة الى الحكومة بعد أخذ نصيبه منها فقد ولّى الخليفة الناصر لدين الله الامير وجه السبع الكوفة اقطاعا فى ٦٠٨هـ (١٢١١م)[١٦] وأقطع مملوكه الامير علاءالدين تنامش (الدجيل) و (دقوقا) بعد أن كان الوزير ابن مهدى قد ولى المناطق المذكورة لابن ساوى النصرانى الذى أساء ادارة المنطقة فكان يأخذ لنفسه ما يريد من ايراداتها ويرسل للخليفة ما يريد[١٧] .

ثالثا : ان رئيس الدولة هو المقطع (بالكسر) الوحيد وقد كان الخليفة نفسه فى العراق فى هذا العهد وأن الاقطاع لا يستلزم دائما حكما مباشرا من قبل المقطع (بالفتح) فقد يعمد هذا الى أنابة آخرين مكانه فى الحكم وقد يعنى الاقطاع مجرد تمتع المقطع (بالفتح) بأيراد الاقطاعه دون الاشتراك فى الحكم بأى شكل من الاشكال فالامير فلك الدين أحد أمراء الناصر لدين الله كان مقطع (دقوقا) و (تكريت) و (بين النهرين)[١٨] فى نفس الوقت وهى مناطق متباعدة منعزلة عن بعضها يصعب تصور حاكمها مقيما فيها كلها فى نفس الوقت ولذلك لابد له على الاقل من انابة آخرين مكانه . ومن الجهة الثانية ورد فى أخبار بدرالدين لؤلؤ أمير الموصل المستقل أنه أمر الشاعر أبا الطيب ابن الحلاوى الموصلى أن يلازم مجلسه كسائر الندماء وأقطعه اقطاعا[١٩] . ويبدو على أقرب الاحتمال ان اقطاع الشاعر المذكور لم يكن يعنى المشاركة فى الحكم .

رابعا : ان نوعية الاقطاع كانت تتوقف على ارادة المقطع (بالكسر) فقد يكون الاقطاع اقطاع تمليك أى يتضمن حق توريث الاقطاعه والتمتع بايراداتها ما دام المقطع (بالكسر) راضيا عن المقطع (بالفتح) وأن هذا قد يخسرها متى شاء المقطع (بالكسر) . وقد كانت مصادرة موظفى الدولة ومن بينهم المقطعين أمرا شائعا . فالامير علاءالدين الطبرسى المعروف بالدويدار الكبير كان يحب العمارات والمتنزهات وقد أقطعه الخليفة

---

(١٦) سبط ابن الجوزى ، مرآة الزمان ، ج ١ قسم ٢ ، ص ٥٦٦ .
(١٧) ن . م . ج ٨ قسم ٢ ، ص ٥٣٥ .
(١٨) الجامع المختصر ، ص ٢٧ .
(١٩) ابن شاكر الكتبى ، فوات الوفيات ، ج ١ ص ١٣٢ .

المستنصر بالله (قوسان) فاستجد بها أملاكا كانت تحمل اليه حدود الثلثمائة الف دينار[٢٠] والمؤرخ ابن الساعى يحدثنا فى حوادث ٥٦٩هـ (١١٧٣م) عن وفاة فلك الدين الطويل الناصرى مقطع (دقوقا)[٢١] ويعود فى حوادث ٦٠١هـ (١٢٠٤م) ليحدثنا عن القبض على الامير معين‌الدين قي آبه مقطع (دقوقا)[٢٢] وفى حوادث ٦٠٢هـ (١٢٠٥م) ليحدثنا عن وفاة ابنة أرغش مقطع (دقوقا) وزوجة الامير قشتمر الناصرى[٢٣] • بينما يشير مصدر آخر الى وفاة تنامش بن عبدالله مملوك الناصر لدين‌الله الذى كان قد اقطعه (دقوقا) ودجيل[٢٤] ونقرأ فى الكتاب الموسوم بالحوادث الجامعة ان الامير سنقر الطويل صاحب (دقوقا) توفى فى ٦٤٤هـ (١٢٤٦م) فى عهد المستعصم بالله وان البلد المذكور كان قد اقطع لوالده فى عهد الخليفة الناصر لدين الله فلما توفى انتقلت اليه من بعده فلما توفى هذا انتقلت الى نواب الخليفة[٢٥] • ونقل دقوقا بين مقطعين متعددين دليل واضح على امكانية انتزاع الاقطاع من ايدى المقطعين ومنحه لآخرين كما أن انتقاله الى الوارثين دليل على امكانية توريث الاقطاع فى بعض الاحيان •

ان مقطعى (بالفتح) العهد العباسى الاخير الذين وردتنا أسماءهم كانوا من مماليك الخلفاء كفلك الدين الطويل الناصرى وجمال‌الدين طغرل الناصرى وعلاء الدين تنامش الناصرى ومجد الدين طاشتكين المستنجدى وعلاء الدين الطبرسى الظاهرى وغيرهم وان أكثر الاقطاع كان من نوع الاستغلال لا التمليك أى أنه موقت لا يورث كما أن النصوص الواردة عنه ـ أى الاقطاع ـ تدل أنه لم يكن خاصة اساسية للاقتصاد العام فى ذلك الحين كما كانت عليه أحوال اوروبا الغربية آنذاك كما ان سيطرة رئيس الدولة تنفى صفة الاستقلال الكامل أو الجزئى للمقطعين (بالفتح) وتشير الى أن الاقطاع

---

(٢٠) الحوادث الجامعة ، ص ٢٦٤ •
(٢١) الجامع المختصر ، ص ٢٧ •
(٢٢) ن • م • ص ١٥٠ •
(٢٣) ن • م • ص ١٨٠ •
(٢٤) مرآة الزمان ، ج ٨ قسم ٢ ، ص ٥٣٥ •
(٢٥) الحوادث الجامعة ، ص ٢١٥ •

كان أسلوبا اداريا مناسبا لعقلية وظروف الاحوال القائمة يضاف الى ذلك ان أحوال العراق الاقتصادية كانت طبيعية ـ على العموم ـ فالتجارة نشطة والملكيات الفردية كثيرة والسوق هو المنظم الاساسى للاقتصاد الذى كان مفتوحا لا مغلقا كما كانت عليه الحال فى اوروبا الغربية .

واذا انتقلنا الى العهد الايلخانى نجد ان ملكية الاراضى احتفظت بنفس الميزات التى كانت عليها فى العهد العباسى الاخير باستثناء فروق محدودة فالملكيات الفردية المستقلة كانت موجودة ولم نسمع أن الايلخانيين حاولوا القضاء عليها فنقيب النقباء تاج الدين على بن محمد بن رمضان الذى كان صدر البلاد الفراتية حصل من الاموال والعقار والضياع ما لا يكاد يحصى[٢٦] وعلى بن محمد بن محمد البغدادى الرفاء أقام فى قرية اسمها (برقطا) واشترى فيها أرضا يستغل بها كفايته[٢٧] وعطا ملك جوينى حاكم العراق المشهور اضطر عند مضايقته والقبض عليه من قبل السلطان الايلخانى (أباقا) بن هولاكو ان يبيع من أملاكه وأسبابه جملة طائلة[٢٨] . كما أن الاراضى الوقفية فى العراق كانت كثيرة[٢٩] وقد وضعت تحت أشراف نصير الدين الطوسى وأولاده من بعده خلال جزء كبير من العهد الايلخانى[٣٠] أما الاراضى الديوانية فتدل عليها الاقطاعات المتكررة التى كان يمنحها السلاطين المغول بين حين وآخر ولم يكن ـ كما يبدو ـ هناك أى فرق بينها وبين أملاك السلطان الخاصة . وقد كانت للخليفة المستعصم بالله آخر الخلفاء العباسيين ولافراد عائلته أملاك خاصة بهم ، وقد قتل المغول أكثرهم ولكننا لا نجد أية اشارة واضحة عما حل بأراضيهم .

وقد أقطع سلاطين المغول أرضين وبلادا لاقاربهم وامراءهم وغيرهم ولكن النصوص الواردة عن ذلك لا تفرق تفريقا واضحا بين أقطاع التمليك واقطاع الاستغلال وان كان الصنفان قائمين فى دولتهم . فقد نزل

---

(٢٦) عمدة الطالب فى أنساب آل أبى طالب ، ص ١٦٩ .
(٢٧) الدرر الكامنة ، ج ٣ ، ص ١٠٤ .
(٢٨) الحوادث الجامعة ، ص ٢١٥ .
(٢٩) ن . م ص ٣٣٣ ، ٣٥٠ ، ٣٥٨ ، ٣٧٥ .
(٣٠) ن . م . ص ٤٤٣ ، ٤٥٦ .

ويبدو ان الاقطاع الايلخانى كان يشبه الاقطاع العباسى من حيث كونه أسلوبا فى الادارة يتضمن قيام المقطع (بالفتح) بأدارة الاقطاعة وارسال وارداتها للحكومة بعد قطع جزء منها لنفسه أو تقبلها بشكل ضمان يدفعه للحكومة ويحتفظ بما يزيد عن ذلك لنفسه • ومن ذلك ما مر بنا عن التاجر العراقى ابن السواملى وما جاء فى تاريخ وصاف فى الكلام عن تنظيم السلطان محمود غازان لضرائب العراق سنة ٦٩٤هـ (١٢٩٤م) حيث قال أن جميع أعمال العراق كالبصرة وواسط والحلة والكوفة والنيل والاعمال الفراتية ونهر الملك ونهر عيسى ودجيل وبعقوبة وطريق خراسان وغيرها وضع خراجها بثلاثة أشكال : ففرض على بعضها خراج مقنَّن وأعطيت أخرى بشكل ضمان بينما جعلت الاجزاء الباقية بشكل أمانة باسم أحد أرباب الدولة أو ملوك الاطراف أو أحد مشاهير العصر[٣٨] والصنف الاخير لم يكن الا نوعا من أنواع الاقطاع •

وأن أهم فرق نجده بين الاقطاعين العباسى الاخير والايلخانى ان الايلخانيين اكثروا من أقطاع المدن والبلاد من أجل تقديم خدمة عسكرية لهم أى للدولة ، وقد مر بنا فى ذلك ما أورده ابن فضل الله العمرى عن اقطاع الامراء والجنود المغوليين ويشبه ذلك ان الامير زامل بن على كان حربا على الامير عيسى بن مهنا وأنه هجم على بيوته وسار الى هولاكو وأطمعه فى بلاد الشام فأعطاه اقطاعا بالعراق فسار الى الحجاز ونهب وقتل ثم عاد الى الشام[٣٩] • وفى ٧١٨هـ (١٣١٨م) سار الامير فضل بن عيسى الى السلطان الايلخانى أبى سعيد وقائده الكبير جوبان فى بغداد ، فأعطاه هذا البصرة بينما استمرت له اقطاعاته بالشام ، وعاد الى بيوته[٤٠] • ومثل ذلك أن خدابنده أعطى الامير مهنا بن عيسى أمير العرب فى بادية الشام ، البلاد الفراتية[٤١] •

---

(٣٨) تاريخ وصاف ، ج ٤ ، ص ٤٠٢ •
(٣٩) المقريزى ، السلوك ، ج ١ ، قسم ٢ ، ص ٥٣٥ •
(٤٠) المختصر فى أخبار البشر ، ج ٤ ، ص ٨٥ •
(٤١) الدرر الكامنة ، ج ٤ ، ص ٣٧٠ •

— ٤ —

الضـــــرائب

يمكن تصنيف الضرائب العباسية خلال نصف القرن الاخير من تاريخ الدولة الى شرعية وغير شرعية فالاولى تتكون من ضريبة الارض أو الخراج والجزية أو ضريبة الرؤوس على أهل الذمة والصدقات وضرائب أخرى كأخماس المعادن وأخماس سيب البحر وضرائب على الصادرات والواردات وارث الميت الذى لا وارث له أما الضرائب غير الشرعية فقد كانت كثيرة ومتنوعة تأتى بأسماء غامضة أحيانا وهى أكثر تعرضا من غيرها لاهواء الحكام ونزواتهم وقد كانت أهمها ضرائب الاسواق والحوانيت والتجارة الداخلية والمواريث يضاف الى ذلك تعمد الحكومة أحيانا انقاص نسبة المعادن الثمينة من النقود ومصادرة موظفيهـــا والاستيلاء على أموالهم وملـكياتهم • كان الخراج هو الضريبة الرئيسة وهو ما كان يفرض على الارض وقد أصبحت أكثرية بلاد العراق خراجية فى أواخر العهد العباسى وكان الخراج فى أصله يجرى تبعا لمساحة الارض ثم أصبح بالمقاسمة منذ أيام الخليفة المهدى وقد جعل الخليفة المأمون مقاسمة أهل السواد الخمسين بعد أن كانت النصف أيام الرشيد • أما الجزية فهى ضريبة الرؤوس على أهل الذمة مقابل حمايتهم واعفائهم من الخدمة العسكرية وقد كان الصابئة معفوين منها فى آخر هذا العهد حتى كأنهم فى ذلك فى حكم المسلمين[١] • وقد وردتنا بعض الضرائب غير الشرعية بأسماء غير واضحة المعنى كالمؤن التى يرى الاستاذ العزاوى بأنها كانت فى أصلها هدايا اكتسبت مع مرور الزمان شكل رسوم مقررة[٢] • ولـكننا نميل الى الاعتقاد انها ضرائب على المبيعات فى الاسواق[٣] • وهناك

---

(١) الحوادث الجامعة ، ص ٦٩ •
(٢) عباس العزاوى ، تاريخ الضرائب العراقية ، ص ٢٢ •
(٣) أنظر الحوادث الجامعة ، ص ١٦٢ •

ما يسمى بالتقسيطات[٤] التى لم نجد لها تفسيرا ولكن يبدو أنها قروض اجبارية تفرضها الحكومة بشكل أقساط ومثل ذلك الباولات[٥] وهى ضرائب لم نجد لها تفسيرا أيضا . يضاف الى ذلك ان انقاص المعادن الثمينة من النقود كان يؤدى الى ارباك الحياة الاقتصادية وارتفاع الاسعار[٦] ويمكننا اعتبار هذه العملية ضريبة مباشرة غير نظامية لها خطرها وأهميتها شأنها شأن المصادرات[٧] التى كانت تجلب للحكومة واردات مفيدة ولكنها تشعر الناس بعدم الطمأنينة على ملكياتهم .

كانت الضرائب فى كثير من الاحيان عرضة لنزوات الحكام وأهوائهم من حيث كمياتها وأنواعها يستوى فى ذلك الشرعية منها وغير الشرعية فابن الاثير وهو مؤرخ معاصر مطلع يحدثنا ان الخليفة الناصر لدين الله احدث الكثير من الرسوم الجائرة حتى أنه رفع خراج بعقوبا من عشرة آلاف الى ثمانين ألف دينار سنويا وانه كان يأخذ أملاك الناس وأموالهم فخرب العراق فى عده وتفرق اهله فى البلاد فلما جاء ابنه الظاهر بأمر الله أمر بأعادة الامور الى سيرتها الطبيعية قبل أبيه والغى الضرائب الجائرة واعاد الكثير من الاموال المغتصبة فى أيام أبيه الى اهلها[٨] .

وعندما ضم الخليفة المستنصر بالله أربل الى مملكته فى ٦٣٠هـ (١٢٣٢م) ارسل الامير باتكين بن عبدالله الرومى واليا عليها فأطلق هذا معظم الضمانات وأزال المكوس والضرائب[٩] . ولكن يبدو ان الخليفة المستنصر عاد الى رفع الضرائب من جديد لان ولده وخليفه المستعصم بالله أمر فى أول توليته فى ٦٤٠هـ (١٢٤٢م) بأزالة ما أحدثه عمال السوء من المكوس

---

(٤) ن . م . ص ١٦٢ ؛ العزاوى ، تاريخ الضرائب العراقية ، ص ٢٢ .
(٥) الحودث الجامعة ، ص ١٦٢ .
(٦) ن . م . ص ٧٠ .
(٧) ن . م . ص ٣٤ ، ١٠٣ ، ١٩٨ ؛ عمدة الطالب ، ص ١٥٥ .
(٨) ابن الاثير ، الكامل ، ج ١٢ ، ص ١٨١ ـ ١٨٣ .
(٩) الحوادث الجامعة ، ص ١٨٢ .

والتقسيطات والمؤن والباولات وقد أخذ الوزير حاجب باب النوبى معه عند صدور هذا الامر خوفا عليه من العوام لانه كان المسؤول عن أخذ المؤن ولانها حدثت فى زمانه[١٠] .

أما أسلوب جباية الضرائب فيبدو أنه كان على ثلاثة أنواع هى : الضمان والاقطاع والجباية المباشرة ويبدو ان الضمان كان كثير الشيوع فى جباية الخراج والجباية المباشرة هى الاسلوب السائد فى جباية الجزية والكثير من الضرائب غير الشرعية وكان للجـــزية ديوان خاص يسمى بديوان الجوالى يأتى اليه كل ذمى بنفسه حيث توزن له جزيته ويكتب له بها[١١] . وقد كان الضمان سببا فى الزيادة من أعباء الضرائب على دافعيها وفى سلب أموالهم وأملاكهم من قبل الضامنين فى كثير من الاحيان فمن ذلك أن وزير الخليفة الناصر لدين‌الله المسمى ناصر بن مهدى ضمن قوسان للنقيب زكى‌الدين بمائة وعشرين ألف دينار ذهبا وهو أضعاف ضمانها السابق فعمل هذا على التهرب من الامر ولـكن ابنه جلال الدين القاسم تقبله وخرج الى قوسان وعسف بالناس بشكل لم يسمع بمثله من قبل مثل ذلك زرعه ضياع بعض الناس واستيلاؤه على جميع ما حصل فى احدى القرى التى كانت له عداوة مع أهلها وتشدده معهم وأهانتهم وقد حمل جميع ما حصل عليه هناك من الغلات وحرزها والتمس من الوزير أن يمنع بيع الغلات والحبوبات مدة عشرة أيام فأجيب الى ذلك فارتفعت الاسعار حتى باع كل ما لديه خلال أسبوع ووفى ضمانه وربح لنفسه الـكثير[١٢] .

وقد كانت ضرائب العهد الايلخانى المغولى استمرارا للضرائب العباسية عدا بضعة ضرائب أهمها المساعدات الاجبارية والقروض الاجبارية التى يحتمل أنها استحدثت فى هذا العهد واذا أردنا تعدادها نجدها بالشكل الآتى: ضريبة الارض أو الخراج وضريبة الرؤوس وضريبة البيوت ولعقارات والضريبة على ما يباع فى الاسواق والقبجور والتمغات وحصة الديوان من

---

(١٠) ن . م . ص ١٦٢ .
(١١) ن . م . ص ١٣ .
(١٢) عمدة الطالب فى أنساب آل أبى طالب ، ص ١٥٥ .

وفيما عدا ذلك نسمع لاول مرة فى أخبار العهد الايلخانى فى العراق بضريبة على البيوت والعقارات جاءت فى ٦٧٧هـ (١٢٧٨م) فى أمر ورد الى والي العراق عطا ملك جوينى بأثبات الدور فى بغداد ومطالبة أربابها بالاجرة عنها شهرين[١٨] . ونسمع فى أخبار نفس السنة بضريبة على المبيعات باسم المؤونة حيث باع أحد أهل السواد كارة من الدخن بدرهم طولب بالمؤونة عنها درهمين ولذلك تركها وانهزم[١٩] . وقد ورد ذكر الضريبة على المراعى أو ما يسميها المغول بالقبجور أو القيجور فى حوادث سنة ٦٤٩هـ (١٢٥١م) فقد رفع امراء المغول الامبراطور الجديد (مونغا) على سرير المملكة فأمر بعد ان فرغ خاطره من أمر المخالفين وتعيين الولاة ان يؤخذ من مراعى ذوات الاربع وتسمى قويجور من كل من له مائة رأس رأس واحد ومن ليس له مائة لا يؤخذ منه[٢٠] . ومعنى ذلك أن الضريبة كانت واحدا بالمائة ولكننا لم نعثر بعد وقائع السنة المذكورة وقد سبقت فتح العراق ببضعة سنين على ما يشير الى جباية مثل هذه الضريبة فى العراق[٢١] . وهناك ضريبة التمغات وليس لدينا ما يلقى ضوءً على طبيعتها ولكن يبدو أنها كانت مجموعة من الضرائب المفروضة على التجارة الداخلية فى المدن وقد كان هناك ضامن لتمغات بغداد[٢٢] فى هذا العهد وكان من جملة الاعمال المشكورة التى قام بها السلطان (أباقا بن هولاكو) عند وروده بغداد فى ٦٧٢هـ (١٢٧٣م) أصداره الاوامر بالاحسان الى الرعية وتخفيف التمغات وحذف الأثقال عنهم[٢٣] . وبينما يرى الأستاذ العزاوى ان التمغات ضريبة على الاموال التجارية الداخلية اتخذت هذا الاسم بسبب السمة التى كانت

---

(١٨) ن . م . ص ٣٩٨ .
(١٩) ن . م . ص ٤٠٤ .
(٢٠) ابن العبرى ، تاريخ مختصر الدول ، ص ٤٥٩ .
(٢١) لم يرد فى الكتاب الموسوم بالحوادث الجامعة ، وهو أوسع المصادر الاولية عن تاريخ العراق فى القرن السابع ما يشير الى وجود هذه الضريبة فى العراق .
(٢٢) الحوادث الجامعة ، ص ٤٥٨ .
(٢٣) ن . م . ص ٣٧٥ .

توضع بدلها على الاموال وتسمى تمغا[٢٤] يفسرها الاستاذان M. Minovi V. Minorsky بأنها ضريبة بنسبة $\frac{1}{٢٤٠}$ كانت توضع على رأس المال وأنواع أخرى عديدة من ضرائب كانت تفرض فى المدن[٢٥] • وفيما عدا هذا نقرأ عن ضرائب كانت تجبى من الناس بالقوة وترد تحت اسم المساعدات والقروض وكانت تنزل على الناس بشكل مفاجىء بين حين وآخر[٢٦] • وهناك مصادرات موظفى الحكومة بمختلف درجاتهم واختصاصاتهم وكانت كثيرة الوقوع وغير محدودة فى كميتها تصل أحيانا الى حد الاستيلاء على كل ما يملكه الموظف وتعريض حياته نفسها الى الخطر[٢٧] • وحصة الحكومة من أموال الاوقاف وليس لدينا ما يحدد كميها وان كانت النصوص الاولية تثبت وجودها[٢٨] • وهناك ضرائب كانت تفرض على الغزل وأماكن بيع الخمر وعلى محلات الفاحشة[٢٩] وأخرى تتمثل بتلاعب الحكومة بالنقود بأصدارها عملات تقل فيها نسبة المعادن الثمينة وقد أمر السلطان محمود غازان عند وروده العراق فى ٦٩٨هـ (١٢٩٨م) بأن يعفى الذهب والفضة من الغش وتضرب الدراهم متساوية[٣٠] • ولابد لنا أخيرا ان نعد بين الضرائب ما كانت تلجأ اليه الحكومة أحيانا من فرض الجنود على البيوت[٣١] • بالزام أهلها أمر النهض بما يحتاجون اليه من الطعام وغيره •

أما أسلوب جباية الضريبة فى هذا العهد فيبدو لنا أنه كان على ثلاثة أنواع هى الضمان والجباية المباشرة والاقطاع ، فالضمان كان يتم بتعهد أحد الناس تقديم مبلغ معين للحكومة عن منطقة من المناطق مقابل جبايته

---

(٢٤) عباس العزاوى ، تاريخ الضرائب العراقية ، ص ٣٥ •

(٢٥) "Nasir - al - Oin Tusi on Jinonce," B. of S. of O. S., Vol. 10, p. 78.

(٢٦) الحوادث الجامعة ، ص ٣٩٨ ، ٤٢٤ ، ٤٣٠ ، ٤٥٠ •

(٢٧) ن • م • ص ٣٤٩ ، ٣٨١ ، ٤١٥ •

(٢٨) ن • م • ص ٤٤٣ •

(٢٩) أبو الفداء ، المختصر فى أخبار البشر ، ج ٤ ، ص ١١٧ •

(٣٠) الحوادث الجامعة ، ص ٤٩٨ •

(٣١) ن • م • ص ٤٤٣ •

صرائبها لنفسه والاقطاع هو أن تقطع المنطقة أو المدينة أو غيرها لاحد الافراد مقابل دفع حصة معينة متفق عليها من ضرائبها للحكومة أما الجباية المباشرة فهى ان يكون للحكومة موظفون مربوطون بها يقومون بجباية الضرائب طبقا لاوامرها • وقد ورد ما يشير الى هذا فيما ذكره تاريخ وصاف فى ان السلطان محمود غازان نظم ضرائب العراق فى سنة ٦٩٤هـ (١٢٩٤م) فجعل خراجه بثلاثة أشكال ففرض على بعض أراضيه خراجا مقننا وأعطى أخرى بشكل ضمان وعهد الباقى بشكل أمانة باسم أرباب الدولة أو ملوك الاطراف أو أحد مشاهير العصر كما نظمت أعمال التمغا والكارخانة والخالصات والمقاطعات على حده وفوضت على نفس الشكل وأصبح كل شخص يعرف ما يقع له دون ان يختلط ما يقع تحت مسؤوليته بمسؤولية غيره وطلب من جباة الضرائب الاستمرار على هذه القاعدة فى المستقبل •[٣٢] •

ويبدو أن الضمان كان أكثر الاساليب شيوعا فى جباية الخراج وضرائب الاسواق والتمغات والخمر والفاحشة وهى ضرائب مستقرة الى حد بعيد والجباية المباشرة الوسيلة المتبعة فى استحصال ضرائب المساعدات الاجبارية والقروض الاجبارية والضرائب على البيوت والعقارات وغيرها من الضرائب التى لم تكن ثابتة مستقرة • ويبدو أن صاحب ديوان العراق أو واليه هو الضامن العام لضرائبه الذى يقدمها للحكومة المركزية ويحتفظ لنفسه بقدر كبير منها بينما يقوم بدوره بضمان ضرائب كل منطقة لآخرين يتعهدون بتقديم ما يجب عليهم ويحتفظون بالباقى لانفسهم ومن ذلك أن الصاحب علاء الدين عطا ملك جوينى فوض اليه أمر العراق وخوزستان على سبيل الضمان[٣٣] • وعقد ضمان العراق فى ٦٩٨هـ (١٢٩٨م) على أمام الدين يحيى القزوينى البكرى[٣٤] وضمنت الاعمال الواسطية لفخر الدين مظفر بن الطراح فى ٦٨٣هـ (١٢٨٤م) والاعمال الحلية لمجد الدين

---

(٣٢) تاريخ وصاف ، ج ٤ ، ص ٤٠٢ •
(٣٣) ن • م • ج ١ ، ص ٩٥ •
(٣٤) الحوادث الجامعة ، ص ٤٦٨ •

اسماعيل بن الياس فى ٦٨٦هـ (١٢٨٧م)[٣٥] .

واذا استعرضنا وقائع العهد لايلخانى نجد أن ضرائبه كانت ثقيلة من حيث الكمية الى حد ان الضمناء أنفسهم كانوا يعجزون عن دفعها أحيانا وأنها كانت كيفية فى كثير من الوجوه تخضع من حيث الكمية والنوعية ووقت الجباية لارادة الحاكم أو الضامن أو جابى الضريبة نفسه وأن طريقة الضمان كان يعقبها على الاكثر جباية الضامن الكثير من المال لنفسه اضافة لما هو مكلف بدفعه للحكومة وأن الفساد كان شائعا بين الحكام وجباة الضريبة الى حد كان يجعل أكثر الاموال فى أكثر الاحوال لا يصل الى خزينة الحكومة ولعل ذلك كان من جملة الاسباب التى دفعتها الى مصادرة الحكام والضمناء والجباة وتعذيبهم والفتك بهم حيث تتعمد غض النظر عن تصرفاتهم من أجل اتخاذهم اسفنجة تمتص بواسطتهم أقصى ما تستطيعه من أموال دافعى الضرائب للانفاق على حاجات الدولة وسلاطينها وأمراءها ، وقد اعترف السلطان محمود غازان فى ديباجة القانون الذى أصدره فى ٧٠٣هـ (١٣٠٣م) لاصلاح أحوال الضرائب فى الامبراطورية الايلخانية بأن جباة الضرائب كانوا يأخذون اضعاف ما هو مطلوب منها من الناس تحت أنواع من العلل والاسباب والاسماء لكونها - أى الضرائب - لم تكن محددة بصورة مفصلة واعترف كذلك بأن أكثر ما كان يجبى من الضرائب لم يكن يصل الى بيت المال . وقد جاء فى نص القانون المذكور بأن الغاية من اصداره هى تعيين وتقرير أموال الممالك وأحوالها ودفع الجور وأنواع الكلف الديوانية وازالة الضرائب الزائدة التى كان يجمعها الجباة لانفسهم وان موظفى الضرائب أرسلوا الى جميع الممالك ليقوموا بتحديدها وتفصيلها فى كل ولاية ومدينة وقرية لكى لا يظل هناك مجال للجباة بأخذ مبلغ أكثر منها وأن ميعاد دفع الضرائب سوف يحدد وكمياتها سوف تقرر وتثبت[٣٦] . ونحن نشك باستمرار تطبيق هذا القانون بعد غازان .

---

(٣٥) ن . م . ص ٤٥٣ - ٤٥٤ .

(٣٦) داستان غازان ، ص ٢٥٧ - ٢٦٤ .

والخراج وهو أكثر الضرائب تحديدا واستقرارا ضوعف من قبل جمال الدين الدستجردانى وصدر الدين الخالدى أصحاب الديوان وأن الاول منهما أجبر أهل العراق فى ٦٩٥هـ (١٢٩٥م) على دفعه ذهبا فأعاده غازان الى ما كان عليه سابقا فى السنة التالية كما أمر بقتل صدر الدين الخالدى فى ٦٩٧هـ (١٢٩٧م) لمضاعفته الخراج ومبالغته فى المصادرات والتثقيلات[٣٧] . وقد كان يحدث ما يشبه ذلك فيما يتعلق بالضرائب الاخرى ففى ٦٧٧هـ (١٢٧٨م) صدر الامر لعلاءالدين عطا ملك جوينى بأثبات الدور فى بغداد فأثبتت وطولب أصحابها بالاجرة ـ أي الضريبة ـ عنها شهرين وفى ٦٨١هـ (١٢٨٢م) طولب أهل بغداد بأجرة أملاكهم عن ثلاثة أشهر واستوفيت الضريبة من أكثرهم ولكن الامر صدر بعد قليل من ذلك باعفاءهم جميعا ثم صدر فى السنة التالية بوجوب دفعهم الضريبة عن مساكنهم باعفائهم جميعا ثم صدر الامر فى السنة التالية بوجوب دفعهم الضريبة عن مساكنهم عن ثلاثة أشهر[٣٨] . وقد فرضت ضريبة الرأس على أهل بغداد فى ٦٥٧هـ (١٢٥٨م) وذلك بأن يدفع كل على قدر حاله ما عدا الشيخ الكبير وغير البالغ ولكن علاء الدين عطا ملك جوينى ألغاها عند مجيئه الى بغداد واليا عليها فى نفس السنة[٣٩] . ولم نعد نسمع عنها بعد ذلك . وقد طلبت الحكومة مساعدة مالية من بغداد وأعمالها فى ٦٧٧هـ (١٢٧٨م) جبيت بالعسف والقوة فأدت بالناس بالاضافة الى ضريبة الدور التى طلبتها فى نفس السنة الى الاختفاء وغلق الاسواق فطولبت النساء بما قرر على رجالهن ولم ينج من ذلك حتى العلويين والقضاة والعدول[٤٠] . وألزم الامير أرغون بن اباقا ، أهل بغداد ، وقد حضرها فى ٦٨١هـ (١٢٨٢م) بالمساعدة وأحضر قاضى القضاة عزالدين بن الزنجانى وقرر عليه وعلى العدول عشرة آلاف دينار

---

(٣٧) الحوادث الجامعة ، ص ٤٩٣ ـ ٤٩٥ .
(٣٨) ن . م . ص ٣٩٨ ، ٤٢٤ ، ٤٣٠ .
(٣٩) ن . م . ص ٣٣٩ .
(٤٠) ن . م . ص ٣٩٨ .

واستوفيت الضريبة من الناس بالقوة وكان كل من اختفى من الناس نهبت داره وما فيهـا وجرى مثل ذلك على نواب الاعمـال الحلية والواسطية والبصرية[٤١] وفى ٦٨٢هـ (١٢٨٣م) وصل شرف الدين هرون بن الصاحب شمس الدين محمد الجوينى كصاحب لديوان بغداد والزم تجار بغـداد بالقرض والمساعدة وضويقوا على ذلك[٤٢] . وفى ٦٨٦هـ (١٢٨٧م) فى عهد السلطان أرغون ، وضع والى بغداد قتلغ شاه بن سنجر أموالا على أهل المدينة على وجه القرض قسطها عليهم وتشدد فى جبايتها ولـكنها أسقطت عنهم بعدئذٍ بوصول حكام آخرين أرسلوا لتصفح أحوال العراق[٤٣] . وفى ٦٩٤هـ (١٢٩٤م) كلف أرباب الاموال من أهـل بغـداد والتجـار والتناة وغيرهم بدفع أموال على وجه المساعدة وحمـل ذلك الى السلطان بايدو[٤٤] .

وبينما نجد الـكثير من حكام العراق يجمعون الاموال لانفسهم حتى تبلغ مقادير كبيرة يحجبون الـكثير منها عن خزينة الدولة نجد آخرين يعجزون عن دفع ما هو مقرر عليهم لثقله ففى ٦٨٥هـ (١٢٨٦م) وشى حكام العراق بصاحب الديوان علاء الدين عطا ملك جوينى الى هولاكو بأنه حصل لنفسه أموال كثيرة فأمر بتقريره فثبت عليه ذلك فأمر بقتله ولـكنه عاد فعفا عنه[٤٥] . وفى ٦٦٠هـ (١٢١٦م) رفع الى هولاكو أن عماد الدين القزوينى أحد حكام بغداد قد اسوعب لنفسه الاموال فأمر بالفحص عنه فثبتت عليه التهمة فأمر بقتله[٤٦] . وفى ٦١٦هـ (١٢٦٢م) قتل شحنة بغداد على بهادر وقبض على وكيله على بن عبدوس وثقل بالحـديد وطولب بالاموال فأدى عشرة آلاف دينار[٤٧] هذا من جهة ومن جهة أخرى قدم الامير أرغون

---

(٤١) ن . م . ص ٤٢٤ .
(٤٢) ن . م . ص ٤٣٠ .
(٤٣) ن . م . ص ٤٥٠ .
(٤٤) ن . م . ص ٤٨٢ – ٤٨٣ .
(٤٥) ن . م . ص ٣٤٣ .
(٤٦) ن . م . ص ٣٤٨ .
(٤٧) ن . م . ص ٣٥٠ .

الى العراق فى ٦٨١هـ (١٢٨٢م) وأمر بعمل حسابه فتخلف على الضمناء شىء كثير ضويقوا عليه[٤٨] . وفى ٦٨٧هـ (١٢٨٨م) عذب الزين الحظائرى ضامن تمغات بغداد فأدى مالا كثيرا وباع أملاكه وأسبابه ليقوم بما تخلف عليه من ضمان الحلة[٤٩] . وفى ٦٨٦هـ (١٢٨٧م) عذب نجم الدين كاتب الجريد على بقايا وجبت عليه فلما أحس العجز من نفسه عن الدفع قتل نفسه[٥٠] . وفى نفس السنة عقد ضمان الاعمال الحلية على مجد الدين بن الياس أضافة الى نيابة الديوان والحكم فى بغداد فكان ذلك ، سببا لذهاب أمواله وأملاكه[٥١] .

---

(٤٨) ن . م . ص ٤٢٤ .
(٤٩) ن . م . ص ٤٥٤ .
(٥٠) ن . م . ص ٤٥١ .
(٥١) ن . م . ص ٤٥٣ .

النظـــام النقـــدى

كان التعامل فى العراق خلال السنين الاخيرة من العهد العباسى يقوم على أساس مزدوج هو الدينار الذهبى والدرهم الفضى وكانت العادة أن الدينار يساوى مثقالا من الذهب والدرهم سبعة أعشار المثقال من الفضة وقد كان الدينار كذلك فى ٦٥١هـ (١٢٥٣م)[١] وكانت النسبة تتذبذب بين العملتين بين العشرة الى الاثنى عشر درهما لـكل دينار ولـكنها كانت أكثر استقرارا حول الرقم الاخير[٢] ويبدو أن سبب ذلك يعود لـكمية الذهب والفضة المتوفرة فى السوق ونسبة المعدن الثمين فى كل منهمـــا وكانت القراضة أو الدنانير المـكسورة شائعة الاستعمال فى السوق مما كان يسبب معاملات تقرب من الربا ولذلك منع الخليفة المستنصر التعامل بها فى ٦٣٢هـ (١٢٣٤م) وأصدر مكانها دراهم فضية جديدة تساوى كل عشرة منها دينارا واحدا ، ولـكن العملة الجديدة أدت كما يبدو الى طرد العملة الجيدة أى الذهبية من السوق فكثرت الدراهم فى أيدى الناس وهبط لذلك سعرها فى السوق وعاد الناس الى استعمال القراضة من جديد[٣] .

وتقدم لنا مجموعة مسكوكات المتحف العراقى حقائق مفيدة فنماذج الدينار العباسى تختلف من حيث الوزن والقطر حتى ما صدر فيها فى عهد الخليفة الواحد نفسه . فهناك دينار من عهد الخليفة الناصر لدين الله من وزن ٢ر١٦٢ غم وقطر ٢٦ مم أصدر فى سنة ٥٩٣هـ (١١٩٦م) وآخر من وزن ٣ر٣٣٥١ غم وقطر ٢٨ مم أصدر فى سنة ٥٩٩هـ (١٢٠٢م) وآخر من وزن ٥ر١١٥ غم وقطر ٢٨ مم أصدر فى سنة ٦٠٠هـ (١٢٠٣م) وآخر من وزن ٢ر٧٦٥ غم وقطر ٢٨ مم أصدر سنة ٦٠١هـ (١٢٠٤م) وهناك دينار واحد يعود لعهد الظاهر بأمر الله من وزن ١ر٦٠٠ غم وقطر ٢٧ مم أصدر

---

(١) الحوادث الجامعة ، ص ٢٦٨ .
(٢) ن . م . ص ٧٠ ، ٢٢٣ .
(٣) ن . م . ص ٧٠ ، ٢٢٣ .

سنة ٦٢٢هـ (١٢٢٥م) وآخر من عد المستنصر بالله من وزن ٤ر٨٣٠ غم وقطر ٢٦ مم أصدر سنة ٦٢٣هـ (١٢٢٦م) ومن عهد المستعصم هناك دينار من وزن ٤ر٣٠٥ غم وقطر ٢٨ مم أصدر سنة ٦٤٠هـ (١٢٤٢م) وآخر من وزن ٧ر٨١٢ غم وقطر ٢٧ر٦ مم أصدر سنة ٦٤١هـ (١٢٤٣م) وآخر من وزن ١٠ر٨٨٤ غم وقطر ٢٧ر٩ مم أصدر سنة ٦٤٣هـ (١٢٤٥م) • أما نماذج الدرهم لفضى فلدينا أحدها من وزن ٢ر٨٥١ غم وقطر ٢١ مم أصدر فى سنة ٦٣٨هـ (١٢٤٠م) وآخر من وزن ٢ر٨٥٢ غم وقطر ٢١ مم أصدر فى سنة ٦٣٩هـ (١٢٤١م) وكلاهما يعودان لعهد المستنصر بالله وهناك درهم من وزن ٥ر٨٨٨ غم وقطر ٢٨ مم أصدر سنة ٦٤٤هـ (١٢٤٦م) أى فى عهد المستعصم بالله •

وقد ضربت النقود المذكورة فى بغداد وكان يشار اليها باسم (مدينة السلام) والكوفة وأربل • وتبدو الكتابة المنقوشة عليها متقاربة يتلخص أكثرها بذكر اسم الخليفة القائم ثم عبارات الشهادة مثل (الامام الناصر لدين الله ، لا اله الا الله وحده لا شريك له ، الناصر لدين الله أمير المؤمنين) على الوجه ، وكلمات : (محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم) على القفا • واكثر هذه المسكوكات بسيطة فى نقوشها ولكن الكتابات كثيرة فيها على الوجه والقفا والاطواق[٤] •

أما فى العهد الايلخانى فأن التعامل ظل فى العراق مثلما كان عليه فى العهد العباسى الاخير يقوم على أساس الدينار الذهبى والدرهم الفضى وأجزاءها • وأهمها الفلس وهو عملة نحاسية صغيرة • وقد حدث فى ٦٨٢هـ (١٢٨٣م) أن أبطلت الفلوس النحاسية وأصدرت مكانها فلوس من فضة كل اثنى عشر فلسا منها بدرهم سميت دناكشر أبطلت فى السنة التالية وأعيدت الفلوس النحاسية من جديد[٥] • ويبدو أن العملة كانت تؤخذ على أساس الوزن حينا والعدد حينا آخر والوزن والعدد فى بعض الاحيان

---

(٤) مجموعة مسكوكات المتحف العراقى •
(٥) الحوادث الجامعة ، ص ٤٣٠ ـ ٤٣١ •

فقـــد أمر الصاحب علاء الدين ، صاحب ديوان العـــراق ، فى ٦٦٦هـ (١٢٦٧م) بضرب فلوس من النحاس تؤخذ كل أربعة وعشرين فلسا منها بدرهم وكل خمسة أرطال بدينار[٦] وفى ٦٨٤هـ (١٢٨٥م) ضربت دراهم جديدة صدر الامر بالتعامل بها عددا مثل الدراهم الابغانية[٧] التى هى ـ كما يبدو ـ دراهم السلطان (أبغا بن هولاكو) • وقد كانت النسبة بين الدينار والدرهم غير مستقرة بل تتذبذب تبعا لسعر الصرف ، ففى ٦٨٤هـ (١٢٨٥م) أبطلت الدراهم السائدة وضرب مكانها دراهم جديدة من نوعين الاول كل عشرة مثاقيل بدينار والآخر كل اثنى عشر مثقالا بدينار[٨] • وقد كانت فى الموصل فى هذا العهد دراهم تتكون من مزيج من النحاس والفضة ، تسمى الدراهم السواد كل أربعين درهما منها بدينار ، أبطلت فى ٦٦٠هـ (١٢٦١م) ، وضربت مكانها دراهم نقرة أى فضية وفلوس[٩] • ويشير ابن فضل‌الله العمرى الذى عاصر أواخر العهد الايلخانى الى ان الدينار فى العراق ، كان من نوعين ، العوال وهو اثنى عشر درهما كل درهم قيراطان وحبتان وكل قيراط ثلاث حبات وكل حبة أربعة فلوس والنوع الثانى الدينار المرسل وكان يساوى عشرة دراهم وكانت به أكثر معاملات أهل بغداد وتجارها[١٠] •

ويبدو أن مشكلة العملة فى العراق فى هذا العهد تشبه مشكلتها فى الولايات الايلخانية الاخرى ، فالعراق لم يعد دولة مستقلة لها حكومتها الخاصة بها التى هى السلطة الوحيدة التى تصدر النقود فيها ، بل أنه أصبح ولاية فى امبراطورية واسعة كل ولاية منها تصدر النقود فى مراكز متعددة ولم تكن العملة فى مختلف الولايات من نفس الوزن والحجم والنقاوة فكل

---

(٦) ن • م • ص ٣٥٨ •
(٧) ن • م • ص ٤٤٦ •
(٨) ن • م •
(٩) ن • م • ص ٣٤٨ •
(١٠) مسالك الابصار للعمرى ، كما ورد فى صبح الاعشى ، ج ٤ ، ص ٤٢٢ •

من سلاطين الاطراف وملوكها فى بلاد الروم وخراسان وفارس وكرمان والجزيرة والعراق العربى وغيرها يصدر عملة كان منها الجيد ومنها الردىء الرخيص وكان الناس يخسرون القليل والكثير نتيجة لاضطراب العملة وكثرة الرخيص منها وكان التجار يتجافون مناطق العملة الرخيصة ويتطلبون العملة الجيدة[١١] . ولذلك عمل السلطان غازان على توحيد العملة فى جميع أنحاء الامبراطورية الايلخانية واصلاحها وضمان سلامتها من الغش[١٢] . ومن ذلك أنه عندما وصل بغداد فى ٦٩٨ (١٢٩٨م) أمر بضرب دراهم متساوية الوزن يتعامل بها الناس عددا وزن الواحد منها نصف مثقال ودراهم أخرى وزن الواحد منها ثلاثة مثاقيل وأخرى وزن الواحد منها مثقال واحد ويكون كل مثقال من الذهب يساوى أربعا وعشرين درهما من الدراهم الاعتيادية كما أنه أمر بضرب عملات أخرى من الذهب من وزن خمسة مثاقيل وثلاثة مثاقيل ومثقالان ومثقال ونصف وربع مثقال وأمر أن يعمل مثل هذا فى جميع ممالك الامبراطورية[١٣] .

وفيما عدا الدينار والدرهم كانت هناك عملة مغولية متداولة فى الصين تسمى البالش ، من الذهب والفضة والورق[١٤] ليس هناك ما يثبت تداولها فى العراق فى العهد الايلخانى . وقد أصدر السلطان (كيخاتو) عملة ورقية فى ايران فى ٦٩٣هـ (١٢٩٣م) من فئات نصف درهم الى عشرة دنانير عليها اسمه[١٤] . أجبر الناس على تداولها فاضطربت بسببها معاملاتهم وارتبكت أحوالهم الاقتصادية وأغلقوا حوانيتهم وقد أرسلت عدة أحمال منها الى بغداد مع الامير (لكزى بن أرغون آقا) ولكن خبرها وصل المدينة قبلها فاضطربت له واستعدت بالاقوات ولكن السلطان أبطلها قبل وصولها اليها[١٥] فأمن الناس شرها .

---

(١١) داستان غازان ، ص ٢٨٢ .
(١٢) ن . م . ص ٢٨٢ ـ ٢٨٦ .
(١٣) الحوادث الجامعة ، ص ٤٩٨ .
(١٤) تاريخ وصاف ، ج ١ ، ص ٢٢ .
(١٥) الحوادث الجامعة ، ص ٤٧٧ ـ ٤٧٨ .

كانت العملة تصدر خلال العقود الاولى من العهد الايلخانى باسم الخاقان رأس الامبراطورية المغولية كلها ، ومن ذلك أن نقود هولاكو تحمل اسم الامبراطور وتحته اسم هولاكو ، ولـكن (أبغا) ابن وخليفة السلطان المذكور أبطل ذلك بعـد مدة قصيرة من حكمه ووضـع اسـمه وحـده وفعل مثل ذلك خلفاءه[١٦] . واذا عدنا الى نماذج العملات الايلخانية المتوفرة فى المتحف العراقى نجدها تتمثل فيما يأتى : هناك دينار من عهد هولاكو من وزن ٣٫٩٥٠ غم وقطر ٢٧ مم ضرب فى ٦٥٨هـ (١٢٥٩م) وآخر من وزن ٤٫٨٠٠ غم وقطر ٢٦ مم أصدر فى ٦٧٢هـ (١٢٧٣م) من نفس العهد وآخر من عهد محمود غازان من وزن ٧٫٧٩٠ غم وقطر ٢٥ مم أصدر سنة ٧٠٣هـ (١٣٠٣م) وآخر من عهد السلطان أولجايتو محمد خدابنده من وزن ٤٫٢٥٤ غم وقطر ٢١ مم أصدر سنة ٧٠٧هـ (١٣٠٧م) وآخر من عهد أبى سعيد بهادر خان من وزن ٤٫٢٧٧ غم وقطر ٢١٫٢ مم أصدر سنة ٧٢٠هـ (١٣٢٠م) . ومن الدراهم الفضية هناك نموذج من عهد هولاكو من وزن ٢٫١٨٥ غم وقطر ٢٢ مم سنة أصدره مجهولة وآخر من عهد أرغون من وزن ٢٫٥٢٥ غم وقطر ٢٢ مم أصدر سنة ٦٨٧هـ (١٢٨٨م) وآخر من وزن ٢٫٢١٠ غم وقطر ٢٣ مم من عهد غازان وسنة ضربه مجهولة وآخر من وزن ٣٫٨٠٥ غم وقطر ٢٦ مم أصدر سنة ٧١٦هـ (١٣١٦م) وهو من عهد اولجايو ودراهم السلطان أبى سعيد المتوفى لدينا كثيرة بعضها شديد التباين عن غيره من حيث الوزن والحجم منها من وزن ٣٫٥٦٦ غم وقطر ٢٣ مم وسنة ٧٢٧هـ (١٣٢٦م) وآخر من وزن ٢٫٥٠٠ غم وقطر ٢٠ مم وسنة ٧٣٥هـ (١٣٣٤م) .

كانت مراكز اصدار هذه النقود أكثر تبايناً مما كانت عليه فى العهد العباسى الاخير فقد ضربت فى العراق فى بغداد والحلّة وواسط والبصرة وفى الجزيرة فى الموصل وسنجار وأربل وفى خارج هاتين الولايتين فى

---

(١٦) انظر مجموعة مسكوكات المتحف العراقى ، أنظر أيضا مسالك الابصار كما ورد فى صبح الاعشى ، ج ٤ ، ص ٤١٩ ـ ٤٢٠ .

مدن متباعدة مثل سلطانية وتبريز وساوة وشيروان وجرجان وغيرها ، وقد كان الدينار الايلخانى متوسط الحجم أو صغيره أصغر بصورة عامة من الدينار العباسى فى عهوده الاخيرة وكانت نقود هولاكو أكبر حجما ـ بصورة عامة ـ وأكثر انتظاما فى دوائرها وأبسط فى الكتابات المنقوشة عليها من نقود السلاطين الذين أعقبوه وأقرب من غيرها شبها بالنقود العباسية وقد كانت النقود الايلخانية تتميز بصورة عامة بكثرة النقوش التى نجد من بينها صور حيوانات كالارنب والقرد أو صور وجه انسان ، أما النصوص المنقوشة عليها فأننا نجد المضروب منها فى البلاد الاسلامية يتمثّل فى العبارات التقليدية مثل (لا اله الا الله محمد رسول الله) وما شاكلها ، كما نجد أسماء الخلفاء الراشدين الاربعة منقوشة على الكثير منها باستثناء أكثر نقود السلطان اولجايتو محمد خدابنده حيث نجد عليها أسماء أئمة الشيعة الاثنى عشرية .

الصـــناعة

عرفت صناعة الفخار الملون الجميل فى العراق فى عصور ما قبـــل التاريخ كما وجدت فيه آثار أقدم القرى والمبانى وهناك نماذج من خوذ وأسلحة ذهبية مطعمة بالاحجار الـكريمة وحلى دقيقة الصنعة وتماثيـــل سومرية وأكدية وآشورية كثيرة يضمها المتحف العراقى الحالى وآثار بابل لا تزال تثبت الآن وجود فنون البناء والنحت والنقش فى العراق القديم وقد استمرت هذه الصناعات والفنون فى العصور التالية وان كانت تتذبذب فى جودتها وانتشارها تبعا لتذبذب الاحوال السياسية والاقتصادية التى مر بها تاريخ البلاد وقد ورث المسلمون بعد فتحهم العراق أكثر هذه الصناعات والفنون وطوروها تبعا لحاجاتهم وطبيعة مدنيتهم • وقد أصبح العراق الحالى قاعدة مهمة من قواعد المدنية الاسلامية أيام الخلفاء الراشدين والامويين ثم غدا القاعدة الرئيسة لها خلال أكثر أيام العباسيين وقد كان الـكثير من أصحاب الصناعة والعلم والفن يتقدمون اليه لعرض ما لديهم من مهارة وفن وكان يساعد ذلك تشجيع الخلفاء والسلاطين وحاشيتهم ونشاط التجارة العالمية التى كان العراق أحد طرقها الرئيسة ومركزا لتزويدها بسلع مهمة كالمنسوجات الفاخرة والزجاج والورق وغيره وتوفر المهارة الفنية ورؤوس الاموال وقد أشار ابن الفقيه الى العراق وقد كتب فى نهاية القرن الثالث الهجرى بأنه : (قلب الارض وخزانة الملك الاعظم)[1] والى بغداد : (ثم قل فى عجائب بغداد ما شئت التى قد اجتمع فيها ما هو متفرق فى جميع الاقليم من أنواع التجارات والصناعات)[2] واذا استعرضنا أهم ما جاء به الجغرافيون والسواح عن صناعة العراق فى العهد العباسى نجد ابن الفقيه يؤكد على تميز أهل الـكوفة بضاعة الوشى والخز والعطريات وأهل بغداد

---

(١) أبو بكر أحمد بن محمد الهمذانى المعروف بابن الفقيه ، مختصر كتاب البلدان ، ص ٢٥٢ •

(٢) ن • م •

بصناعات كثيرة أهمها الثياب البيض والزجاج المحكم من أقداح وأقحاف وكاسات وبالغضائر الحجرية كما يفهم من كلام أورده بعد ذلك أن بغداد كانت مركزا لصناعة الورق الفاخر وأن أهل كورة دجلة والسواد وميسان ودست ميسان كانوا يتميزون بعمـــل الستور والبسط والفرش ونسيج الحرير[٣] . ويشير الاصطخرى وقد وضع كتابه حوالى ٣٤٠هـ (٩٥١م) الى صناعة قصر الثياب فى بغداد حتى ان أنواعا خاصة من الثياب التى كانت تصع فى خوزستان كانت تحمل اليها من أجل ذلك[٤] : وقد قدم الينا المقدسى وقد وضع كتابه حوالى ٣٧٥هـ (٩٨٣م) وصفا جيدا لانواع الصناعات فى العراق مع توزيعها الجغرافى فأشار الى أن البصرة كانت ذات أقطان وأن عبادان كان فيها عباد صالحون أكثرهم من صناع الحصر من الحلفاء[٥] وتكريت معدن السمسم وصناع الصوف[٦] وأن البصرة مشهورة بالخز والبز وأنها كانت معدن اللالىء والجواهر وبها يضع الراسخت والزنجفر والزنجار والمرداسخ[٧] وأن بالـكوفة عمائم الخز وببغداد الطرائف وألوان ثياب القز وأن بالنعمانية كانت تصنع أكسية وثياب صوف عسلية حسنة وبها أزر وعمائم يكانكى رفيعة[٨] . وأشار الى شهرة الستور الواسطية والى ان من رسوم أهل العراق التجمل والتطليس وأنهم يكثرون التنقل وتسطيل العمائم[٩] . وقد مر الرحالة المغربى ابن جبير بالعراق فى ٥٨٠هـ (١١٨٤م) ووصف بغداد وأهم محلاتها وأشار الى أن أحداها تسمى (العتابية) بها

---

(٣) ن . م . ص ٢٥٢ ـ ٢٥٣ .

(٤) أبو اسحق ابراهيم بن محمـــد الفارسى الاصطخرى المعروف بالـكرخى ، مسالك الممالك ، ص ٩٣ .

(٥) شمس الدين أبو عبدالله محمد بن أحمد بن أبى بكر الشامى المقدسى المعـــروف بالبشارى ، احسن التقاسيم فى معـــرفة الاقاليم ، ص ١١٨ .

(٦) ن . م . ص ١٢٣ .

(٧) ن . م . ص ١٢٨ .

(٨) ن . م . ص ١٢٨ .

(٩) ن . م . ص ١٣٩ .

تضع الثياب العتابية وهى من حرير مختلف الالوان[١٠] . وأشار ياقوت الحموى الى ان (حربى) وهى بليدة فى أقصى دجيل تنسج فيها الثياب القطنية الغليظة وتحمل الى ساير البلاد[١١] وان (الحظيرة) وهى قرية كبيرة فى جهة تكريت من ناحية دجيل ، تنسج فيها الثياب الكرباس الصفيق ويحملها التجار الى البلاد[١٢] . وأن (باقدارى) وهى قرية من قرى بغداد ، تعمل بها ثياب من القطن غلاظ صفاق يضرب بها أهل بغداد المثل[١٣] . وأن (نرس) وهو نهر بنواحى الكوفة مأخذه من الفرات وعليه عدة قرى ، تنسب اليها ثياب تسمى بالنرسيّة[١٤] وأن (سبن) اسم موضع فى العراق كانت تنسب اليه الثياب السبنية وتتخذ من الكتّان وهى أغلظ ما تكون[١٥] وأن قادسية دجلة وهى قرية كبيرة من نواحى دجيل بين حربى وسامرا ، كان يعمل بها الزجاج[١٦] . وفى ٦٥٤هـ (١٢٥٦م) أى قبل سقوط بغداد بسنتين مر السائح المغربى ابن سعيد بالعراق ، وأشار الى تعدد صناعات الموصل التى كان من أهمها أوانى النحاس المطعم التى تحمل الى الملوك والثياب المحررات[١٧] وهى التى يخلط غزلها بالحرير . ولدينا فى الكتاب الموسوم بالحوادث الجامعة ما يدل على وجود الصابون[١٨] فى هذه الفترة ، وهو من المستلزمات المهمة للمدنية ولابد ان تكون له صناعة فى العراق ، والتحف الذهبية والفضية من قناديل وحلى نسائية والاقمشة الفاخرة من الحرير والصوف والقطن[١٩] وفى المبنى الموجود فى بغداد الحالية والموسوم

---

(١٠) رحلة ابن جبير ، ص ٢١١ .
(١١) معجم البلدان (طبعة لايبزج) ، ج ٢ ، ص ٢٣٥ .
(١٢) ن . م . ص ٢٩٢ .
(١٣) ن . م . ج ١ ، ص ٣٧٥ .
(١٤) ن . م . ج ٤ ، ص ٧٧٣ .
(١٥) ن . م . ج ٣ ، ص ٣٥ .
(١٦) ن . م . (مطبعة السعادة) ج ٧ ، ص ٧ .
(١٧) ابن سعيد المغربى ، كتاب بسط الارض فى الطول والعرض ، ص ٩٠ .
(١٨) الحوادث الجامعة ، ص ٢١٥ .
(١٩) ن . م . ص ٧٩ ، ٨٢ ، ٨٣ ، ٨٦ ، ٨٨ ، ٨٩ ، ٩٤ ، ١١٨ ، ١٥٤ ، ١٩٤ ، ٢١٣ ، ٢١٥ ، ٢٦٨ .

بالقصر العباسى وفى جامع مرجان والمدرسة المستنصرية نماذج عباسية لمصنوعات زجاجية وخزفية جميلة وقاشانى وأبواب وشبابيك من الخشب المزخرف بالزخارف الاسلامية التقليدية وأخيرا لا بد لنا من الاشارة الى صناعة ضرب النقود الذهبية والفضية والنحاسية ولدينا الكثير منها مما يعود لايام الخلفاء العباسيين الاربعة المتأخرين .

وخلال العهد الايلخانى ، يبدو ان أكثر هذه الصناعات ، ان لم يكن جميعها استمر فى العراق . فهولاكو ، الفاتح الجديد أمر باصلاح ما خرب من بغداد واعادة أسواقها وأعمال أهلها الى ما كانت عليه سابقا ومع أنه ليس لدينا من الحقائق التاريخية ما يحدد مقدار خسارة المدينة من الايدى الماهرة فى الصناعة فأن البلاد ، كما يبدو ـ استطاعت التعويض عنها بعد فترة ليست طويلة ، ربما عن طريق هجرة أهل الخبرة من أهل القرى والمدن المجاورة الى المدن المتضررة وهى بغداد والموصل وأربل وواسط[٢٠] . أما المدن الاخرى كالبصرة والكوفة والحلة فأنها استسلمت للفاتحين دون قتال ولذلك لم تخسر الكثير من أياديها الماهرة . ويلقى زكريا بن محمد بن محمود القزوينى وقد وضع كتابه حوالى ٦٧٤هـ (١٢٧٥م) ضوء على طبيعة النشاط الصناعى والفنى فى بغداد بقوله أنها : (مجمع لطيبات الدنيا ومحاسنها ومعدن لارباب الغايات وآحاد الدهر فى كل علم وصنعة)[٢١] وأشار السائح المغربى ابن بطوطة الى ما يقرب من ذلك بقوله وقد مر بالعراق فى ٧٢٧هـ (١٣٢٧م) : (والجانب الشرقى من المدينة حافل الاسواق عظيم الترتيب أعظم أسواقه يعرف بسوق الثلاثاء كل صناعة فيه على حده)[٢٢] وقد ورد فى مراصد الاطلاع ، وهو معاصر ، ما يشير الى استمرار الكثير

---

(٢٠) انظر ما قاله صاحب مراصد الاطلاع عن بغداد بعد فتح هولاكو لها : (حتى جاء التتر اليها فخرب أكثرها وقتلوا أهلها كلهم ، فلم يبق غير احاد كانوا نموذجا حسنا وجاء أهل البلاد فسكنوها وباد أهلها) ج ١ ، ص ٢٠٩ .

(٢١) آثار البلاد وأخبار العباد ، ص ٢٠٩ ـ ٢١١ .

(٢٢) تحفة النظار ؛ ج ١ ص ١٤٠ ـ ١٤٢ .

من الصناعات العباسية ، فقد أشار الى (حزة) وهى بليدة قرب أربل ، بأنه ينسب اليها النصافى الحزية وهى أردية[٢٣] . والى (الحظيرة) وهى قرية على دجيل ، أنه ينسب اليها الثياب القطن التى تحمل الى البلاد[٢٤] والى (ترسخ) وهى قرية بين (باكسايا) و (البندنيجين) أن فيها ملاحة واسعة بجلب ملحها الى بغداد[٢٥] . والى (حربى) أنه تنسج فيها الثياب القطنية الغليظة التى تحمل الى البلاد[٢٦] . والى (دار القز) وهى محلة فى الجانب الغربى من بغداد منفردة فى الصحراء ، بأن الكاغد كان يصنع بها ويضيف القزوينى الى ذلك ان (كرخ) وهى قرية فوق بغداد ، بها دكاكين الكاغد والثياب الابريسمية[٢٧] .

ويبدو مما كتبه السائح المغربى ابن بطوطة أن صناعة الزجاج العراقى كانت تتمتع بشهرة غير قليلة حتى أنه وجد الكثير من منتجاتها فى مدينة (العلايا) فى بلاد الروم (آسيا الصغرى) أثناء مروره بها[٢٨] وفى مدينة خوارزم[٢٩] أيضا كما يفهم من كلامه عن (دهلى) ان الاسلحة كانت تصنع فى العراق ويتاجر بها فى الهند[٣٠] وهو يشير فى موضع آخر الى ان بغداد كانت تصنع أنواعا خاصة من الثياب الحريرية تسمى (الكمخا) تصدر الى خارج العراق[٣١] . وخلال مروره بمدينة النجف فى العراق دخل مزار الامام علي فوصف العتبة بأنها كانت مصنوعة من الفضة والقبة بأنها مفروشة بأنواع البسط الحريرية وغيرها وبها قناديل الذهب والفضة

---

(٢٣) مراصد الاطلاع ، ج ١ ، ص ٤٠٠ .
(٢٤) ن . م . ص ٤١١ .
(٢٥) ن . م . ج ١ ، ص ٢٥٨ .
(٢٦) ن . م . ج ١ ، ص ٣٩٠ .
(٢٧) ن . م . ج ٢ ، ص ٥٠٧ ؛ زكريا بن محمد القزوينى ، آثار البلاد ، ص ٤٤٤ .
(٢٨) تحفة النظار ، ج ١ ، ص ١٨٢ .
(٢٩) ن . م . ص ٢٣٤ .
(٣٠) ن . م . ص ٨٢ .
(٣١) ن . م . ص ١٩٣ .

الكبار والصغار وفى وسطها مسطبة مربعة مكسوة بالخشب المغطى بصفائح الذهب المنقوشة وسقف القبة مغطى بستور من الحرير[٣٢] . ومع أن الكثير مما ذكره يعود فى صناعته الى العهد العباسى فمن المحتمل جدا ان يكون بعضه خصوصا الستور والبسط من نتاج العهد الايلخانى لان السائح مر بالعراق فى واخر العهد المذكور . وقد أشار ابن فضل الله العمرى المتوفى سنة ٧٤٩هـ (١٣٤٨م) الى ان مملكة ايران (أى الدولة الايلخانية) وكان العراق العربى والجزيرة جزء منها ، معروفة بصناعة الاقمشة الفاخرة كالنخ والمخمل والكمخا والعتابى والنصافى[٣٣] . والنخ كما وصفه ابن بطوطة ، ثياب من الحرير والكمخا ثياب حريرية مذهبة[٣٤] . والنصافى البغدادية على ما يفهم من مسالك الابصار ثياب رفاع من القطن والكتان ومن الكتان وحده كانت مشهورة خارج العراق[٣٥] . يضاف الى ذلك ان الورق البغدادى كان أجود أصناف الورق المستعمل فى مصر فهو ثخين مع ليونة ورقة حاشية وتناسب أجزاء ولا يكتب فيه فى الغالب الا المصاحف الشريفة ويستعمل كذلك فى مكاتبة القانات وكان الورق الشامى دونه ودون ذلك الورق المصري[٣٦] . وقد مر السائح البندقى (ماركو بولو) بالعراق فى أوائل العهد الجلائرى ، وهو العهد الذى أعقب العهد الايلخانى ، فأشار الى وجود بضعة صناعات مهمة فى بغداد منها منسوجات الحرير المصنوعة بالذهب والقديفة المطرزة بصور الطيور والحيوانات والنسيج الفاخر المسمى بالدمشقى وأضاف الى ذلك ان جميع اللؤلؤ الذى يحمل من الهند الى اوروبا يثقّب ويهيء للاستعمال فى بغداد وأن الاقمشة الحريرية والمذهبة المسماة

---

(٣٢) ن . م . ص ١٠٩ ـ ١١٠ .
(٣٣) مسالك الابصار ، كما جاء فى صبح الاعشى ، ج ٤ ، ص ٤٠٨ .
(٣٤) تحفة النظار ، ج ١ ، ص ١٩٣ .
(٣٥) صبح الاعشى ، ج ٥ ، ص ١٠٢ .
(٣٦) ن . م . ج ٢ ، ص ٤٧٦ ؛ ج ٦ ، ص ١٨٩ ـ ١٩٥ ؛ انظر أيضا لنجوم الزاهرة ، ج ٨ ، ص ١٣٦ .

موسلين تصنع فى مدينة الموصل[٣٧] . يضاف الى ذلك أن لدينا من الأخبار ما يشير الى نوع من صناعة الساعات فى أواخر العهد العباسى وفى هذا العهد أيضا[٣٨] ومثل ذلك صناعة الخمور لاسيما وأن الكثير من أهل الذمة والمسلمين كانوا يشربونها خلال العهدين العباسى والايلخانى .

ان دراسة صناعات العراق دراسة علمية شاملة تستلزم توفر نماذج أثرية كافية ولكن المؤسف ان بقايا العهد الايلخانى محدودة وما يتوفر لدينا منها من مبانى وخزف وزجاج ونقوش وقاشانى ومصنوعات خشبية ومخطوطات تشير الى استمرار الفن العباسى من جهة وضآلة التأثيرات المغولية من الجهة الاخرى باستثناء صناعة ضرب النقود التى نشهد فيها تغيرا واضحا يتمثل بكثرة صور الحيوان والانسان المنقوشة عليها فى العملة النحاسية بصورة خاصة فلدينا فلس ضرب فى الموصل يحمل فى احدى جانبيه صورة أسد منقوشة وفى أعلاه شمس وآخر ضرب فى بغداد يحمل نقشا مدورا لوجه انسان وحواليه نقوش تتألف من ثمانية مثلثات وآخر ضرب فى سنجار وعلى احدى جانبيه صورة أرنب رافع احدى رجليه الى الاعلى وهو داخل مثلث متساوى الاضلاع ومثل ذلك الكثير ولكننا نكتفى بهذه النماذج لكثرتها وتكررها ومما يلفت لنظر ان هذه الصور والنقوش تمثل شيئا غير قليل من الجمال ودقة االصنعة وقد ضربت فى جهات متعددة كبغداد والموصل وأربل وسنجار والحلّة والبصرة[٣٩] .

---

(٣٧)
Manuel Komroff, The Travels of Marco Polo (The Modern Library, New York), p. 28 - 30.

ومما يؤيد ما ذكره ماركو بولو عن صناعة ثقب اللؤلؤ فى بغداد ما ذكره ابن حجر العسقلانى بأن احد سكان بغداد المعروف بالسوامل تعلّم ثقب اللؤلؤ فيها فجمع من ذلك مالا دخل به بتجارة الى الصين ، الدرر الكامنة ، ج ١ ، ص ٥٩ .

(٣٨) الحوادث الجامعة ، ص ٤٤٤ ؛ ابن كثير ، البداية والنهاية ، ج ١٤ ، ص ٩٧ .

(٣٩) مجموعة مسكوكات المتحف العراقى .

التجـــارة

يمكن القول على ضوء الحقائق التاريخية المتوفرة لدينا أن نشـــاط العراق التجارى خلال العهد الايلخانى استمرار لما كان عليه فى أواخر العهد العباسى مع بعض الفروق التى يمكن اجمالها فيما يأتى :

أولا : ان الفتح المغولى خلق توجيها جديدا فى تجارة الشرق الاوسط أصبحت معه علاقات العراق مع ايران وهى القاعدة الاساسية للامبراطورية الايلخانية ، أشد مما كانت عليه فى السابق بينمـــا ازدادت علاقاته مع تركستان والصين ، لان الامبراطورية الايلخانية كانت ولو اسميا جزء من امبراطورية الخاقان المغولى الذى اتخذ قواعده فى تركستان ثم الصين .

ثانيا : وتبعا لذلك ضعفت علاقات العراق التجارية مع سوريا ومصر وبلاد العرب لانها أصبحت تابعة لدولة المماليك العدو الاول للايلخانيين .

ثالثا : أصبح الطريق البرى الذى يربط العراق بأواسط آسيا يميل الى الشمال نتيجة لاختيار الايلخانيين لتبريز ثم سلطانية عاصمتين لهـــم وكلاهما فى أذربيجان كما أنه أصبح أكبر أهمية من السابق بالنسبة للعراق لانه أصبح يربطه بقلب الامبراطورية المغولية التى كان العراق جزء منها .

رابعا : لم يعد هناك خليفة ولا بلاط خلفاء فى بغداد يوجه اقتصاد البلاد وتجارتها بحاجاته الـكبيرة المستمرة من الاقمشة الفاخرة وأسباب الترف والاسلحة وغيرها ولـكن بغداد ظلت احدى أكبر وأهمّ المدن الايلخانية خصوصا فى عهد واليها عطا ملك جوينى الذى حرص على أعادة مكانتهـــا القديمة اقتصادياً وثقافيا .

كان حكام المغول يدركون ما للتجارة من أهمية بالغة فى رخاء البلاد ونشاطها الاقتصادى وأكثر المؤرخين المعاصرين يعتبرون السبب فى اقدام جنكيزخان على غزو دولة خوارزم فى ٦١٦هـ (١٢١٩م) هو قتل (غايرخان) حاكم مدينة (أترار) فى ما وراء النهر للتجار الذين أرسلهم جنكيزخان للحصول على طرائف وتحف تلك البلاد بعد استأذانه (محمد بن تكش)

سلطان خوارزم[١] . وأن جنكيزخان أرسل للشاه بعد تلك الحادثة من يخبره بأن « من المعهود من الملوك أن التجار لا يقتلون لانهم عمارة الاقاليم وهم الذين يحملون الى الملوك ما فيه التحف والاشياء النفيسة »[٢] . وقد كان حكام المغول يهتمون ـ على العموم ـ بأمر الطرق التجارية وضرورة المحافظة على سلامتها ، حتى أن اخضاع جنكيزخان لاواسط آسيا خلق جوا من السلام والامن على طول الطرق التجارية التى كانت تصلها بالعالم الاسلامى فقد أقام على الطرق حراسا (قراقجية) يخفرون المترددين اليها[٣] . وأصدر أمره بأن جميع التجار الذين يدخلون المناطق الخاضعة لحكمه يجب المحافظة على سلامتهم وكل بضاعة يمكن أن تنال أعجابه يجب ان ترسل اليه مع أصحابها[٤] . وقد عمل السلطان محمود غازان فى أواخر القرن السابع الهجرى على تحديد مسؤولية ما يقع من قطع للطرق أو تهديد لها والقاءها على سكان المنطقة التى تقع فيها الحوادث وتعيين آلاف من الحراس لمراقبة الطرق والمحافظة عليها[٥] . ويشير الى مثل ذلك السائح البندقى (ماركو بولو) فى كلامه عن سفره خلال أقليم فارس فى الفترة التالية للحكم الايلخانى حيث قال أن السكان كانوا معتادين على قتل بعضهم البعض ولا يترددون عن الحاق الاذى بالتجار والمسافرين لولا خوفهم من التتار الشرقيين الذين ينزلون بهم بسبب ذلك أشد العقاب ويضيف الى ذلك قوله بأن الاوامر كانت تقتضى بأن على السكان فى جميع الطرق التى يمكن أن ينشأ فيها خطر يهددها ، أن يقدموا أدلاء نشطين موثوق بهم الى التجار الذين يطلبون منهم ذلك لقيادتهم والمحافظة على سلامتهم مقابل أجور تتناسب مع عدد الاحمال وطول المسافة[٦] .

---

(١) ابن العبرى ، تاريخ مختصر الدول ، ص ٤٠٠ ـ ٤٠١ ؛ ابن كثير ، البداية والنهاية ، ج ١٣ ، ص ٨٢ ـ ٨٣ .

(٢) تاريخ مختصر الدول ، ص ١١٩ .

(٣) ن . م . ص ٣٩٩ .

(٤) History of the World Conqueror, I. p. 77-78.

(٥) داستان غازان ، ص ٢٧٧ ـ ٢٨١ .

(٦) The Travels of Marco Polo, p. 40.

تقسم التجارة الى نوعين داخلية وخارجية فالداخلية هى ما يجرى بصورة طبيعية بين الريف والمدينة وبين المدن نفسها والمناطق الريفية مع بعضها والتجارة الخارجية هى ما كان يقوم بين العراق والبلاد المجاورة والبعيدة • ان المدن مراكز طبيعية للمواصلات والتجارة ونشاطها يعكس لنا أحوال البلاد الاقتصادية العامة ومدى رخاءها وحيويتها وقد كانت تجارة العراق ـ فى العهد الايلخانى ـ تتركز فى بغداد بشكل رئيسى ثم فى الموصل والبصرة وواسط والنجف • وكانت تجارته الداخلية تعتمد على الطـــرق النهرية أكثر منها على الطرق البرية لرخصها وسهولتها ويتكرر ذكر دجلة أكثر من الفرات فى هذا المجال وكانت تربط بين البصرة وبغداد والموصل وكان القسم الجنوبى منها أكبر أهمية من غيره لاتصاله بخليج البصرة والهند والصين • وكانت السفن والفوارب تصل من الفرات الى دجلة عن طريق القنوات العديدة التى تربط بينهما : اما التجارة الداخلية فأنها كانت تقوم على الطرق البرية والبحرية وقد ازدادت أهمية الطرق البرية فى هذه الفترة وهى نفس الطرق العباسية المعروفة مع تعديلات ثانوية وكان أهمها طريق خراسان العظيم الذى كان يمر من بغداد الى حلوان داخل العراق ومنها الى همذان فالرى ومنها الى أقليم خراسان ثم الى نيسابور وطوس ومرو حتى يبلغ ضفة نهر جيحون عنـد آمل ثم الى بخارى فسمرقند • وينشطر الطريق فى (زامين) الى شطرين يسير الايسر منهما الى الشاش وهى (طاشقند الحالية) ثم الى (أترار) ويسير الشطر الايمن من(زامين) الى أقليم فرغانة • وينتهى أخيرا الى تخوم الصين • وخلال العهد الايلخانى فتح طريق فرعى يتجه من الشمال الى السلطانية التى أصبحت قاعدة الدولة فى عهد السلطان اولجاتيو محمد خدابنده وأصبحت مركزا للطرق بدلا من مدينة الرى[٧] •• أما الطرق لاخرى ، فهناك الطريق المار بواسط الى البصرة ، وطريق الحج وكان يخرج من بغداد الغربية جنوبا الى الـكوفة

---

(٧) لسترنج ، بلدان الخـلافة الشرقية (ترجمة بشير فرنسيس وكوركيس عواد) ص ٢٣ ـ ٢٤ •

ومنها الى الحجاز ، وكان يخرج بالاضافة الى ذلك طريق ثانى للحج يسير فى بادىء أمره بموازاة الطريق الاول ويلتقى به أخيرا على مرحلتين من شمال مكة • وفيما عدا ذلك كان هناك طريق شمالى يصل بين بغداد والانبار على الفرات ثم يصعد مع النهر الى الرقة حيث تخرج منه طرق الى الروم شمالا ودمشق غربا ، وطريق آخر من بغداد الى جانبى دجلة الى الموصل والجزيرة • وقد ازدادت أهمية طريق خراسان بسبب الاحوال السياسية الجديدة بينما خسرت الطرق المتصلة بالشام الكثير من أهميتها لكثرة المخاطر المحيطة بها بسبب العداء بين الايلخانيين والمماليك •

أما الطرق البحرية فقد كانت تصل البصرة ببغداد عن طريق نهر دجلة وكانت السفن الآتية من بحر الهند تصعد من عبادان الى الابلة ومنها فى نهر الابلة الى البصرة[٨] • وكانت عبادان تقع على جزيرة تسمى (ميان روزان) ومعناها (وسط الانهار) تحيط بها دجلة العوراء أى شط العرب من جانبها حيث تصب فى البحر فى جهتين ويقع تفرق مياه دجلة المذكورة الى فرقتين عند قرية تقع على هذه الجزيرة تسمى (المحرزى) حيث تذهب فرقة الى اليمين تسير فيها السفن الى بر العرب ناحية البحرين وغيرها وفرقة الى جهة اليسار تسير فيها المراكب الى نواحى فارس فتمر بجزيرة (كيس) أو (كيش) المعروفة بمغاصات اللؤلؤ ومنها الى (سيراف) وكانت أعظم موانى فارس تزدحم بالمراكب وتعيش على التجارة ومنها كانت تصل الى (هرمز) حيث يرد التجار من مختلف أنحاء الهند يحملون معهم التوابل والاحجار الثمينة ونسيج الذهب وأسنان الفيل وغيرها من سلع تجارية مهمة فى ذلك الحين ، ليأخذها منهم تجار يردون من مختلف الاصقاع يبيعونها فى بلادهم[٩] •

---

(٨) المؤيد صاحب حماة ، تقويم البلدان ، ص ٥٧ •

(٩) مراصد الاطلاع ، ج ١ ، ص ٢١٦ ؛ ج ٢ ، ص ٩١٣ ، ج ٣ ، ص ١٣٤١ ؛ القلقشندى ، صبح الاعشى ، ج ٤ ، ص ٣٤٥ ـ ٤٠٨ ابن بطوطة ، ج ١ ، ص ١٧٣ ؛ رحلة ماركو بولو (بالانكليزية) ص ٢٩ ـ ٣٢ ، ٤٦ •

ولابد لنا اذا أردنا ان نفهم الكثير عن طبيعة حركة هذا العهد التجارية ان نستعرض ما ورد عن مدن العراق الرئيسة لانها كانت قلب تجارته النابض ومراكزه الاقتصادية الحيوية فبغداد كانت لا تزال تحتفظ بالمركز الاول لموقعها الجغرافى الممتاز ومكانتها التاريخية والسياسية وقد زارها الرحالة ابن سعيد فى ٦٥٤هـ (١٢٥٦م) فذكر أن أرخص ما فيها التمر الذى يجلب من البصرة والرز وقصب السكر اللذان يجلبان من البطائح وجهات واسط وان فيها التفاح القراطيس والعنب الرازقى والنارنج القروى والليمون البعقوبى والورق البغدادى والاقلام الواسطية وتحمل المراكب اليها بضائع الهند فى دجلة[١٠] • وأشار اليها زكرياء بن محمد القزوينى بأنه كان يحمل اليها كل متاع ثمين وعرض نفيس[١١] • وابن بطوطة يشير الى نشاط المدينة وامتلاء الجانب الشرقى منها بالاسواق التى كان أعظمها سوق الثلاثاء وفيه كل صناعة على حدة[١٢] • والمستوفى القزوينى يشيد بغنى المدينة ورخاءها وتوفر المواد الغذائية ورخصها فيها حتى أن كل ما يحتاجه الانسان من ضرورات الحياة المرفهة يجده تحت متناول يده[١٣] • وأخيرا يصف ماركو بولو المدينة بأنه يجرى خلالها نهر عظيم يقوم التجار بنقل بضاعاتهم بواسطته من البحر واليه[١٤] • أما البصرة فأننا لا نجد عنها الا القليل فابن بطوطة لا يقدم لنا ما يعيننا على ادراك مقدار نشاطها التجارى وان كان يشيد بسعتها وكثرة بساتينها وفواكهها ويشير الى أن الابلة ، وهى ميناء البصرة ، كانت مدينة عظيمة يقصدها تجار الهند وفارس ولكنها خربت فأصبحت فى عهده قرية بها آثار قصور وغيرها تدل على عظمتها السابقة[١٥] • ويصف

---

(١٠) كتاب بسط الارض ، ص ٩١ •
(١١) آثار البلاد وأخبار العباد ، ص ٢٠٩ •
(١٢) تحفة النظار ، ج ١ ، ص ١٤٠ ـ ١٤٢ •
(١٣) نزهة القلوب (الترجمة الانكليزية للقسم الجغرافى) ، ص ٤١ ـ ٤٢ •
(١٤) رحلة ماركو بولو (بالانكليزية) ، ص ٢٩ •
(١٥) تحفة النظار ، ج ١ ، ص ١١٥ ـ ١١٨ •

حمدالله القزوينى البصرة بأنها مدينة متوسطة الحجم[١٦] ويفعل مثل ذلك ماركو بولو[١٧] . واذا انتقلنا الى الموصل نجد ابن سعيد يصفها بأنها قاعدة بلاد الجزيرة[١٨] . وزكريا القزوينى بأنها احدى قواعد بلاد الاسلام رفيعة البناء وسيعة الرقعة فيها بساتين نزهة وجواسق واهلهـــا أهل تدقيق فى الصناعة[١٩] . وهذا لا يعنيا كثيراً على ادراك طبيعة نشاطها التجارة ولـكن حمد الله المستوفى القزوينى يقدم لنا صورة أوضح عن ذلك من طرف خفى بقوله ان الموصل عاصمة بلاد الجزيرة ، وأن واردات الحـكومة من هذه الولاية كانت تبلغ أيام الاتابكة وبدر الدين لؤلؤ عشرة ملايين دينارا فأصبحت الآن ـ أى فى أوائل العهد الجلائرى ـ تساوى (١٫٩٢٥٫٠٠٠) دينارا[٢٠] ويعنى ذلك تدهورا كبيرا أصاب وارداتها يحتمل جدا ان يكون تناقص النشاط التجارى أحد أسبابه . وقد مر السائح المغربى ابن بطوطة بهذه المدينة وأشار الى كثرة فنادقها وأسواقها وقال أن قيسارتيها مليحة لها أبواب من حديد تدور بها دكاكين وبيوت متقنة البناء بعضها فوق بعض[٢١] . ولـكن السائح البندقى ماركو بولو يبرز أهميتها التجارية بصورة أكثر وضوحا من غيره بتأكيده على أنسجتها الذهبية والحريرية وقوله أن جميع كبار التجار المعروفين بالموصليين والذين يحملون التوابل والعقاقير بكميات كبيرة بين بلاد وأخرى هم من منطقتها[٢٢] . ولابد لنا بعد هذا من ذكر مدينة واسط لانها كانت مركزاً تجاريا مهما بين خليج البصرة وبغداد وزكريا القزوينى يشير من طرف الى رخاء ونشاط تجارى غير قليل فيها بقوله أنها كانت (كلها قصور وبساتين ومياه وعيبها ان حاصلها يحمل الى غيرها فلو

---

(١٦) نزهة القلوب ، ص ١٠٣ .
(١٧) رحلة ماركو بولو ، ص ٢٩ .
(١٨) كتاب بسط الارض ، ص ٩٠ .
(١٩) آثار البلاد ، ص ٣٠٩ .
(٢٠) نزهة القلوب ، ص ١٠٢ .
(٢١) تحفة النظار ، ج ١ ، ص ١٤٨ ـ ١٤٩ .
(٢٢) رحلة ماركو بولو ، ص ٢٩ .

كان حاصلها يبقى فى يد أهلها لفاقت جميع البلاد[٢٣]) ويشير ابن بطوطة أيضا الى أنها كانت مركز تجاريا وأنها مدينة على شىء من الغنى[٢٤] . واذا انتقلنا الى طرف آخر من أطراف العراق وهو طريق الحج الجنوبى الغربى الى مكة ، نجد الكوفة ، وهى محطة رئيسة فيه ، يصفها المستوفى القزوينى بأن أكثرها خراب[٢٥] ويفعل مثل ذلك ابن بطوطة[٢٦] وسبب ذلك على قوله ، قبيلة خفاجة التى تسكن فى منطقتها وضعف حركة الحج فى هذا العهد ، وانتقال المركز التجارى من هذه المدينة ـ كما يبدو ـ الى (النجف) التى كانت تجارتها نشطة فى هذا العهد وكما يصفها ابن بطوطة من أحسن مدن العراق وأكثرها ناسا بها أسواق حسنة وأهلها تجار يسافرون فى الاقطار[٢٧] . هـــذه أهم الحقائق التلى وصلتنا عن مدن العراق التجارية الرئيسة وهى تشير الى أن تجارة العراق لم تكن كبيرة فى العهد الايلخانى وأن بغداد كانت مركزها الرئيس الذى تبدو المدن الاخرى الى جانبه ثانوية فى أهميتها باستثناء مدينة الموصل فى الجزيرة .

أدى الفتح المغولى للمناطق الشرقية من العالم الاسلامى ـ كما يقول عطا ملك جوينى وهو معاصر شديد الصلة بالمغول ، الى ذهاب الكثير ممن يعتقدون باله واحد الى داخل الامبراطورية المغولية حتى وصلوا أقصى أقطار الشرق واسوطنوا فيها وبلغوا هناك أعدادا لا تحصى وكان منهم من حمل الى هناك خلال فتح المغول لما وراء النهر وخراسان لكونهم من أصحاب الفنون والحرف ومن رعاة الحيوانات وآخرون جاؤا من أقصى الجهات الغربية من العراقين وسورية والاقطار الاسلامية الاخرى ، وظلوا يتجولون على الطرق التجارية يزورون كل منطقة ومدينة حيث كسبوا الشهرة واستقروا نهائيا فى تلك المناطق وأنشأوا لانفسهم القصور والقـــلاع والمدارس ونشروا

---

(٢٣) آثار البلاد ، وأخبار العباد ، ص ٣٢٠ .
(٢٤) تحفة النظار ، ج ١ ، ص ١١٤ .
(٢٥) نزهة القلوب ، ص ٣٧ .
(٢٦) تحفة النظار ، ج ١ ، ص ١٣٧ .
(٢٧) ن . م . ص ١٠٩ ـ ١١٠ .

الاسلام[٢٨] . وقد أيد ابن بطوطة ذلك من بعيد بقوله أن (فى كل مدينة من مدن الصين مدينة للمسلمين ينفردون بسكناهم ولهم فيها المساجد .. وهم معظمون محترمون)[٢٩] وهو يؤكد على ما كان فى الصين فى عهده من الامان والاطمئنان بالنسبة للمسافرين حتى ان لانسان كان يسافر منفردا مسيرة تسعة أشهر ومعه الأموال الطائلة فلا يخاف عليها لان حكومتها وضعت فى كل منزل فى بلادها فندقا عليه حاكم معه جماعة من الفرسان والرجال للاشراف على ذلك[٣٠] . وابن بطوطة يلقى ضوءً مفيدا على نشاط العراقيين التجار فى كلامه عن مدينة (السرى) عاصمة امبراطورية القبيلة الذهبية بقوله ان فيها طوائف عديدة من الناس كل منها يسكن فى محلة على حده والتجار الغرباء من أصل العراقين ومصر والشام وغيرها ساكنون بمحلة عليها سور[٣٠] . وخلال سفر السائح نفسه من مدينة (السرى) الى خوارزم ، صحبه شريف من أهل كربلاء من التجار عزم على السفر معه الى الهند ، وبعد وصولهما خوارزم ، وصل من أهل كربلاء من العراق ، جماعة أخرى كانت تزمع السفر الى الصين ، فسافر التاجر المذكور معهم ، وعند وصولهم مدينة (المالق) وهى آخر البلاد التابعة لمنطقة ما وراء النهر على حدود الصين ، وصل من بلدهم تجار آخرون نزلوا معه فى فندق واحد[٣١] وخلال اقامة ابن بطوطة فى مدينة خوارزم ، زار قاضيها أبا حفص عمر ، فى داره ، ففدم له الطعام فى أوانى كان بعضها من صناعات الزجاج العراقى[٣٢] .

يضاف الى ذلك ان المصادر المعاصرة تطالعنا عن نتف من الاخبار عن عراقيين ذهبوا فى تجارتهم الى الصين ، مثل ابراهيم بن محمد بن سعدى الشهير بابن

---

(٢٨)

History of the world conqueeor, I, p. 77-78.

(٢٩) تحفة النظار ، ج ٢ ، ص ١٦٠ .
(٣٠) ن . م . ج ٢ ، ص ١٦٢ .
(٣٠) ن . م . ج ١ ، ص ١٣٠ .
(٣١) ن . م ج ١ ، ص ٢٣٥ ـ ٢٣٦ .
(٣٢) ن . م . ج ، ص ٢٣٣ ـ ٢٣٤ .

السواملى الذى توغل وتمول فى تجارته مع الصين[٣٣] . وأحمد بن يوسف بن أبى البدر البغدادى التاجر السفار الذى دخل الهند مرارا والصين وأقام فى تلك البلاد أكثر من عشرين سنة وتوفى فى حلب فى ٧٠١هـ (١٣٠١م)[٣٤] ومحفوظ بن معتوق بابن البزورى الذى كان يغيب سنين كثيرة فى التجارة ويدخل الهند والصين حتى توفى فى دمشق سنة ٦٩٤هـ (١٢٦٥م)[٣٥] وقد كان اهم ما يجلب من الصين المسك ، وكان يؤتى به من (خانفو) مدينة الصين العظمى حيث ترسو مراكب تجار المسلمين ويحمل منها الى بحر فارس ومنه الى الابلة[٣٦] . وكان الميناءان الصينيان الآخران اللذان يكثر ذكرهما على ألسنة التجار هما (الزيتون) و (سوسة) .

أما الهند فأن الاتصالات التجارية معها كانت أقدم وأكثر متانة من الصين ، والطريق اليها الذى تتكرر الاشارة اليه هو الطريق البحرى وكان الهنود يردون الى خليج البصرة وسواحل ايران من أجل التجارة مع أهل المنطقة وكانت الخيل العراب تحمل الى الهند من البحرين واليمن والعراق اضافة الى الاقمشة الفاخرة التى كانت ترد اليها من الصين والعراق ومصر[٣٨] . وكان المسك يحمل من التبت الى الهند حيث يجمع فى يجمع ومنها يحمل فى البحر الى سيراف ميناء فارس المهم وعمان والمناطق المجاورة[٣٩] وكانت سيراف مركزا رئيسا لالتقاء تجار العراق الواردين من الابلة وتجار ايران والهند والديبل على خليج السند ميناء الهند الاكبر الذى يتجمع فيه تجار المسلمين ويشحن اليه التمر من البصرة[٣٩] . وعندما

---

(٣٣) ابن حجر العسقلانى ، الدرر الكامنة ، ج ١ ، ص ٥٩ .
(٣٤) ن . م . ج ١ ، ص ٣٣٨ - ٣٣٩ .
(٣٥) محمد بن رافع السلامى ، منتخب المختار ، ص ١٦٥ .
(٣٦) صبح الاعشى ، ج ٢ ، ص ١١٥ .
(٣٧) ن . م . ج ٤ ، ص ٤٨١ .
(٣٨) ن . م . ج ٤ ، ص ٨١ ، ٨٤ .
(٣٩) ن . م . ج ٥ ، ص ٦٤ .

وصل ابن بطوطة الى مدينة دهلى فى ٦٣٤هـ (١٢٣٦م) لقى السيد أبا الحسن العبادى العراقى الذى كان يتجر بمال سلطان المدينة ويشترى له الاسلحة والامتعة من العراق وخراسان[٤٠] . وعند مواجهته للسلطان المذكور وجد بين يديه تاجرا غنيا من شيوخ بغداد يعرف بالسامرى يحترمه السلطان ويقول له والدى[٤١] . وكانت مدينة هرمز أيام ابن بطوطة مرسى الهند والسند تحمل منهما سلعهما الى العراقين وفارس وخراسان[٤٢] وكان التجار الذين يترددون اليها يحملون معهم البهارات والعطور والاحجار الكريمة واللؤلؤ ونسيج الحرير وأسنان الفيل وغيرها من السلع التى يحملها تجار آخرون الى مختلف أنحاء العالم[٤٣] .

واذا انتقلنا الى المنطقة القريبة الواقعة شمال العراق الحالى أى آسيا الصغرى أو بلاد الروم كما كانت تسمى فى العهد الايلخانى تطالعنا المصادر الاولية عن علاقات تجارية غير قليلة بينها وبين العراق العربى والجزيرة فقد كانت تمتاز بأصناف جيدة ورخيصة من الغنم والماعز وكانت أكثر ذبائح أهل الشام وديار بكر والعراق وبلاد العجم مما يجلب اليها منها[٤٤] . وقد زار السائح المغربى ابن بطوطة بلاد الروم وأشار الى الزجاج العراقى فى مدينة العلايا[٤٥] ومر بمدينة (كمش) الكبيرة و وذكر بان التجار يأتون اليها من العراق والشام[٤٦] وعند كلامه عن مدينة (أيا سلوق)

---

(٤٠) تحفة النظار ، ج ٢ ، ص ٨٢ .
(٤١) ن . م . ج ٢ ، ص ٨٧ .
(٤٢) ن . م . ج ١ ، ص ١٧٣ .
(٤٣) رحلة ماركو بولو ، (المصدر المار ذكره) ، ص ٤٦ .
(٤٤) مسالك الابصار كما جاء فى القلقشندى ، ج ٥ ، ص ٣٥٦ .
(٤٥) تحفة النظار ، ج ١ ، ص ١٩٣ .
(٤٦) ن . م . ج ١ ، ص ١٨٩ .

أشار الى أن سلطانها أعطاه مملوكا روميا وثوبين من الكمخاالتى وصفها بأنها ثياب حرير تصنع فى بغداد وتبريز ونيسابور والصين[٤٧] . ويبدو ان نشاط التجار العراقيين كان يصل الى بلاد الارمن التى كانت تمتد ـ فى هذا العهد ـ الى منطقة آسيا الصغرى الواقعة شمالى سورية . ففى ٧٣٥هـ (١٣٣٤م) غزا عسكر حلب هذه البلاد وألحقوا تخريبات يبدو أنها كانت كبيرة فى (طرسوس) و (أذنة) وأخذوا منها الاسرى ، فانتقم أهل (أياس) وهى احدى مدنهم ، بمن كان عندهم من المسلمين وحبسوهم فى خان ثم أحرقوه عليهم ، وكان ممن قتل فى تلك الحادثة نحو ألفي تاجر من البغاددة وغيرهم[٤٨] .

ويبدو ان التجارة لم تنقطع تماما بين العراق وسورية ومصر بالرغم من العداء المستحكم بين الايلخانيين والمماليك فقد كان الورق البغدادى أشهر ورق فى مصر يكتب به للملوك وغيرهم[٤٩] وفى ٦٥٩هـ (١٢٦٠م) احضر السلطان الظاهر بيبرس أمراء العربان فى سورية وأقطعهم وسلّمهم حفظ الدروب الى حدود العراق وأصدر منشورا أمر فيه الامير شرف الدين مهنا على جميع العربان[٥٠] . وفى ٦٧٠هـ (١٢٧١م) اتهم قاضى قضاة مصر شمس الدين محمد بن ابراهيم الحنبلى بان لديه ودائع التجار من أهل بغداد وحران والشام بجملة كبيرة وأنهم ماتوا[٥١] . وفى ٧٠١هـ (١٣٠١م) مات التاجر السفار أحمد بن يوسف بن أبى البدر البغدادى فى حلب[٥٢] .

---

(٤٧) ن . م . ج ١ ، ص ١٩٣ .
(٤٨) أبو الفداء ، المختصر فى أخبار البشر ، ج ٤ ، ص ١١٩ .
(٤٩) صبح الاعشى ، ج ٢ ، ص ٤٧٦ ؛ المقريزى ، السلوك ، ج ١ ، قسم ٢ ، ص ٤٩٧ .
(٥٠) المقريزى ، السلوك ، ج ١ ، قسم ٢ ، ص ٤٦٤ ـ ٤٦٥ .
(٥١) ن . م . ص ٦٠٢ ـ ٦٠٣ .
(٥٢) الدرر الكامنة ، ج ١ ، ص ٣٣٨ .

وكان تاجر السلطان بالرقيق اسماعيل بن محمد السلامى المتوفى فى ٧٤٣هـ (١٣٤٢م) وجيها بين السلطانين محمد بن قلاوون سلطان المماليك وأبى سعيد سلطان الايلخانيين ، وكان يسعى بالصلح بينهما ويصل الى مملكة الايلخانيين السنتين والثلاث والبريد لا ينقطع عنه وله فيها ضياع(٥٣) .

ان اهم المشاكل التى كانت تعانيها تجارة العراق فى هذه الفترة تتمثل فى موقف القبائل البدوية العربية والكردية التى كانت تقطع الطرق وتنهب التجار ، والخلاف بين دولتى الايلخانيين والمماليك ومضايقة الدولة والاغنياء طمعا بمالهم وعدم توحيد النقود فى سائر أنحاء الامبراطورية الايلخانية .

فابن سعيد المغربى وقد مر بالعراق فى ٦٥٤هـ (١٢٥٦م) يشير الى أن خفاجة ، عرب لعراق فى عصره ، كانوا يقومون بغارات متصلة على البلاد التى صارت فى حوزة التتر ، وكلما طلبوا دخلوا الصحراء كما يقول نأ بطائح الكوفة كانت مأوى للعريان وقطاع الطرق(٥٤) والسائح ابن بطوطه يشير الى ان مدينة الكوفة كانت خربة فى عهده وأن سبب ذلك عرب خفاجة المجاورين لها لانهم يقطعون طريقها(٥٥) . ويضيف الى ذلك أنه سافر من النجف الى البصرة ، برفقة كبيرة من عرب خفاجة ، اهل تلك البلاد ، الذين كانت لهم شوكة عظيمة حتى أنه لا سبيل الى السفر فى تلك الاقطار الا فى صحبتهم(٥٦) . وخلال سفرته هذه الى جانب الفرات ، مر قبل وصوله واسط ، بموضع يعرف بالعذار ، فوصفه بأنه غابة فى قصب وسط الماء يسكنها أعراب يعرفون بالمعادى قطاع طرق ، خرجوا

---

(٥٣) ن . م . ج ١ ، ص ٣٨١ .
(٥٤) كتاب بسط الارض ، ص ٦٥ ـ ٨٩ .
(٥٥) تحفة النظار ، ج ١ ، ص ١٣٧ .
(٥٦) ن . م . ج ١ ، ص ١١٣ .

على جمـاعة من الفقراء تأخروا عن الركب فسلبوهم حتى النعال[٥٧] .
وفى ٦٨٠هـ (١٢٨١م) ظهر أعراب مفسدون فى السيب وأطراف واسط فسار اليهم العسكر المغولى ونهب منهم الـكثير وعاد بالاسرى والاموال[٥٨] .
وفى ٦٨٦هـ (١٢٨٧م) دخل الاعراب يوم الجمعة الى الجامع (بالمحول) وهى على مسافة قصيرة من بغداد الغربية فأخذوا ثياب كل من كان فيه ثم قصدوا (الحارثيّة) وكبسوها ليلا وأخذوا ما قدروا عليه وقتلوا جماعة من أهلها ولـكن شحنة العراق استطاع ان يظفر باكثرهم ويضرب اعناقهم[٥٩] .
وفى ٦٩٣هـ (١٢٩٣م) أمر السلطان كيخاتو الامير المغولى بايدو بالمسير الى بلاد واسط وسوادها لظهور جماعة من الاعراب المفسدين ، فسار هذا اليهم ولـكنهم لجأوا الى البطائح فلم يقدر عليهم فأخذ هو بنهب الاموال وأسر الناس وسبى نساءهم ونهب سفن التجار الواصلين من البحر[٦٠] . وفى ٦٩٨هـ (١٢٩٨م) سار السلطان غازان الى العـــراق وأرسل العسكر الى بطائح واسط حيث حصروا الاعراب واكثروا فيهم القتل والنهب والسلب ثم عين جماعة لملازمة أعمـــال واسط ومنع من بقى من العـــرب عن الفساد[٦١] . وقد ذكر رشيدالدين فضل‌الله أن قطاع الطرق من مغول وأكراد ولوريين وشاميين وغيرهم كانوا يتطاولون على الناس وان البعض من المتنفذين وأصحاب السلطة كانوا يتفقون معهم ويغضون النظر عنهم حتى كان من الصعب القضاء عليهم حتى جاء غازان وأصلح الحال بوضع مسؤولية هذه الحوادث على سكان المنطقة وتعيين عدد كبير من حراس الطرق[٦٢] .

---

(٥٧) ن . م .
(٥٨) الحوادث الجامعة ، ص ٤١٥ .
(٥٩) ن . م . ص ٤٥١ ـ ٤٥٢ .
(٦٠) ن . م . ص ٤٧٦ ـ ٤٧٧ .
(٦١) ن . م . ص ٤٩٨ .
(٦٢) داستان غازان ، ص ٢٧٧ .

وقد أشار ماركو بولو فى كلامه عن رحلته فى منطقة الموصل ، بأن الاكراد كانوا يقطنون الاجزاء الجبلية ويشتغلون بسرقة التجار(٦٣) .

وقد كان الخلاف المزمن بين دولتى الايلخانيين والمماليك سببا فى ضياع الامن وقطع الطرق على التجار بين العراق والبلاد العربية المحيطة به فقد كان احتمال غزو سورية خطرا قائما حتى أواخر أيام أبى سعيد آخر سلاطين الايلخانيين وكان جنود المغول يهددون أطراف سورية ويتغلغلون حتى مدينة دمشق نفسها فى بعض الاحيان وكان جنود المماليك والقبائل العربية التابعة لها خصوصا قبائل طى الضاربة فى الصحراء السورية تهدد أطراف العراق والجزيرة وتقترب من الموصل ومن ذلك أن السلطان الظاهر بيبرس جهز فى ٦٦٣هـ (١٢٦٤م) عسكرا كثيفا الى ناحية الفرات ليطرد التتار النازلين (بالبيرة) فلما سمع المغول بذلك ولوا مدبرين وأمنت المنطقة بعد خوف وقلق واضطراب(٦٤) وفى ٦٧١هـ (١٢٧٢م) سار السلطان بيبرس الى نفس الناحية وكانت محاصرة بطائفة من التتار فلما سمعوا به هربوا(٦٥) وفى ٦٨٤هـ (١٢٨٥م) أغار عسكر الشام على ديار بكر والموصل وأربل وقتل وأسر الكثير من أهلها ونهب أموال التجار فى قيسارية الموصل(٦٦) .

وفى ٦٩٩هـ (١٢٩٩م) أفلحت الجيوش المغولية بقيادة السلطان محمود غازان فى أيقاع هزيمة كبيرة فى وادى الخزندار من حمص بقوات المماليك التى كانت تحت قيادة السلطان الناصر محمد بن قلاوون وقد دخل المغول دمشق وتراجع المماليك الى مصر ولكن غازان ما لبث ان عاد الى الموصل

---

(٦٣) رحلة ماركو بولو (المصدر المار ذكره) ، ص ٢٨ .
(٦٤) ابن كثير ، البداية والنهاية ، ج ١٣ ، ص ٢٤٤ .
(٦٥) ن . م . ج ١٣ ، ص ٢٦٣ .
(٦٦) الحوادث الجامعة ، ص ٤١٥ .

فى طريقه الى ايران وعاد الممالك الى سورية ثم أنه عاد الى سورية بجموع كثيفة من جنوده والتقى مع السلطان الناصر فى (شقحب) بالقرب من دمشق فى ٧٠٢هـ (١٣٠٢م) فهزم التتر هزيمة كبيرة وولوا مدبرين[٦٧] . ومن الجهة الاخرى كانت الاتصالات تجرى فى بعض الاحيان بين الايلخانيين والمماليك لتحسين العلاقات وتسهيل سبل التجارة بينهما ففى ٦٨١هـ (١٢٨٢م) أرسل السلطان أحمد بن هولاكو الذى تحول الى الاسلام قبل قليل رسالة الى الملك المنصور قلاوون يطلب فيها انهاء حالة التوتر والحرب بين الدولتين واطلاق سبل التجار والمسافرين فأجاب المنصور قلاوون الى ذلك وأصدر أوامره بتسهيل سفر التجار[٦٨] ولكن ذلك لم يدم الا فترة قصيرة لان المغول قتلوا السلطان أحمد بن هولاكو ونصبوا الامير أرغون سلطانا فى ٦٨٣هـ (١٢٨٤م) فعادت العلاقات الى التوتر بين الدولتين الايلخانية والمملوكية وقد أرسل السلطان محمود غازان فى أواخر حياته رسلا بيهنم قاضى الموصل وخطيبها كمال‌الدين بن بهاءالدين الشافعى الى السلطان محمد بن قلاوون يطلب انهاء حالة الحرب بين الجانبين وما نتج عنها من تعذر سفر التجار وتوقف البضائع والاسفار[٦٩] ولكن الناصر اعتبر طلبه من باب الحيلة والخداع ولذلك رفضه . وقد ظلت العلاقات متوترة بين الجانبين حتى ٧٢٠هـ (١٣٢٠م) حيث نشطت مفاوضات الصلح بينهما وانتهت بعودة العلاقات السلمية بين الدولتين فى أواخر عهد السلطان ابى سعيد آخر الايلخانيين الذى توفى فى ٧٣٦هـ (١٣٣٥م)[٧٠] .

---

(٦٧) أبو الفداء ، المختصر فى اخبار البشر ، ج ٤ ص ٤٤ ، ٥٠ .
(٦٨) ابن العبرى ، تاريخ مختصر الدول ، ص ٥٠٨ ـ ٥٠٩ .
(٦٩) جمال‌الدين ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة ، ج ٨ ، ص ١٣٧ ـ ١٣٨ .
(٧٠) المقريزى ، السلوك ، ج ٢ ، قسم ١ ، ص ٢١١ ـ ٢١٤ ، قسم ٢ ، ص ٣١٠ ـ ٣٧٢ .

وأخيرا يبدو ان جانبا مهما من ثقل الضرائب كان يقع على التجار فيعرقل التجارة ويؤدى احيانا الى غلق الاسواق هربا من الضريبة كما ان اضطراب النقود وعدم توحيدها فى مختلف ولايات الامبراطورية الايلخانية ووجود مناطق تكثر فيها العملة الرخيصة كان يربك التجارة ويدفع بالتجار الى تجافى بعض المناطق لكثرة العملة الرخيصة فيها[٧١] .

(٧١) انظر الحوادث الجامعة ، ص ٣٩٨ ، ٤٢٤ ، ٤٣٠ ، داستان غازان ، ص ٢٨٢ .